الداء والدواء

أو

الجواب الكافي

لِمَن سـأل عن الدواء الشافي

للإمام ابن قيّم الجوزية

رحمه الله

فهرس الموضوعات

لكل داء دواء ٧
دواء العي السؤال.. ٧
القرآن شفاء ٨
الدعاء يدفع المكروه ٩
دعاء الغافل.. ١٠
فصل: الدعاء من أنفع الأدوية.. ١٠
للدعاء مع البلاء مقامات ١١
فصل: الإلحاح في الدعاء ١١
فصل: من آفات الدعاء ١٢
فصل: أوقات الإجابة ١٢
أدعية مأثورة ١٣
فصل: ظروف الدعاء.. ١٦
فصل: شروط الدعاء المستجاب.. ١٦
فصل: الدعاء والقدر ١٦
الدعاء من أقوى الأسباب ١٧
عمر يستنصر بالدعاء.. ١٧
ارتباط الخير والشر بالعمل ١٨
التاريخ تفصيل لِما جاء عن الله ٢١
فصل: مغالطة النفس حول الأسباب ٢١
خطأ في فهم الاستغفار ٢١
التعلق بالجبر ٢٢
التعلق بالإرجاء.. ٢٢
الخطأ في الحب.. ٢٢
الاغترار بالله ٢٣
الاغترار بالفهم الفاسد والقرآن والسنة.. ٢٣
حسن الظن بالله.. ٢٥
حسن الظن هو حسن العمل ٢٦
الفرق بين حسن الظن والغرور ٢٧
فصل: الذين اعتمدوا على عفو الله فضيعوا أمره ونهيه ٢٧

فصل: الاغترار بالدنيا ٣٦
كيف يجتمع اليقين بالمعاد، والتخلف عن العمل ٣٨
فصل: الفرق بين حسن الظن والغرور ٣٩
فصل: الرجاء والأماني ٤٠
خوف الصحابة من الله.. ٤١
فصل: ضرر الذنوب في القلب كضرر السموم في الأبدان ٤٣
قد لا يؤثر الذنب في الحال.. ٥٢
فصل: من آثار المعاصي ٥٣
طول العمر وقصره.. ٥٥
فصل: توالد المعاصي ٥٦
فصل: المعصية تضعف إرادة الخير ٥٧
فصل: إلف المعصية... ٥٧
المعاصي مواريث ٥٧
فصل: هوان العاصي على ربه ٥٨
هوان المعاصي على المصرِّين.. ٥٨
فصل: شؤوم الذنوب... ٥٨
فصل: المعصية تورث الذل... ٥٩
فصل: المعاصي تفسد العقل.. ٥٩
فصل: الذنوب تطبع على القلب ٥٩
فصل: الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ...................... ٦٠
من لعنه الله... ٦٠
فصل: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ٦١
فصل: ما رآه الرسول ﷺ من عقوبات العصاة............................. ٦١
فصل: الذنوب تحدث الفساد في الأرض................................. ٦٣
المعاصي سبب الخسف والزلازل ٦٤
تأثير الذنوب في الصور ٦٤
فصل: الذنوب تطفئ الغيرة ٦٥
فصل: المعاصي تذهب الحياء... ٦٧
فصل: المعاصي تضعف في القلب تعظيم الرب ٦٨
فصل: المعاصي تنسي الله ٦٩
فصل: المعاصي تخرج صاحبها من دائرة الإحسان ٦٩

فصل: العاصي يفوته ثواب المؤمنين ٧٠
فصل: المعاصي تضعف القلب... ٧١
فصل: المعاصي تزيل النعم ٧٢
فصل: المعاصي تلقي الرعب والخوف في القلوب ٧٣
المعاصي توقع في الوحشة.. ٧٣
فصل: المعاصي تمرض القلوب.. ٧٤
فصل: المعاصي تعمي البصيرة.. ٧٥
فصل: المعاصي تصغر النفوس ٧٦
فصل: العاصي في سجن الشيطان.. ٧٦
فصل: المعاصي تسقط الكرامة... ٧٧
فصل: المعصية مجلبة للذم.. ٧٨
فصل: المعصية تؤثر في العقل ٧٩
فصل: المعاصي توجب القطيعة بين العبد والرب................................ ٨٠
فصل: المعاصي تمحق البركة ٨١
فصل: المعصية تجعل صاحبها من السفلة ٨٣
فصل: المعاصي تجرئ على الإنسان أعداءه ٨٦
فصل: المعاصي تضعف العبد أمام نفسه ٨٦
فصل: المعاصي تعمي القلب ٨٩
فصل: المعاصي عدو لدود... ٩٢
التقاء الجيشين ٩٤
ثغر العين.. ٩٥
فصل: ثغر الأذن ٩٥
فصل: ثغر اللسان ٩٦
النفس الأمّارة.. ٩٨
فصل: المعصية تنسي العبد نفسه.. ١٠٠
فصل: المعاصي تزيل النعم ١٠٢
فصل: المعصية تباعد بين العبد والملك....................................... ١٠٣
فصل: المعاصي مجلبة للهلاك ١٠٥
فصل: العقوبات الشرعية على المعاصي ١٠٦
فصل: عقوبات الذنوب شرعية وقدرية ١٠٧
فصل: القطع لإفساد الأموال ١٠٨

أقسام الذنوب ١٠٩
الكفارات في ثلاثة أنواع ١٠٩
لا يجتمع الحد والتعزير ١٠٩
فصل: العقوبات القدرية ١١٠
العقوبات القدرية على القلوب ١١٠
فصل: العقوبات القدرية على الأبدان ١١٠
فصل: بعض عقوبات المعاصي ١١٢
الختم على القلب ١١٣
خسف القلب ١١٤
مسخ القلب ١١٤
نكس القلب ١١٥
حجب القلب عن الرب ١١٥
المعيشة الضنك ١١٥
نعيم الأبرار وجحيم الفجار ١١٧
سلامة القلب ١١٧
الصراط المستقيم ١١٨
فصل: أصل الذنوب ١١٩
الذنوب الملكية ١١٩
فصل: الذنوب الشيطانية ١٢٠
فصل: الذنوب السبعية ١٢٠
الذنوب البهيمية ١٢٠
فصل: الذنوب: كبائر وصغائر ١٢٠
عدد الكبائر ١٢١
الذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر ١٢٢
فصل: الحق في المسألة ١٢٣
فصل: شرك الوساطة ١٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

* ما تقول السادة العلماء، أئمة الدين، رضي الله عنهم أجمعين، في رجل ابتلي ببلية، وعلم أنها إن استمرت فيه أفسدت عليه دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما يزداد إلا توقدًا وشدة، فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم الله من أعان مُبتلًى، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى.

فأجاب الشيخ، الإمام، العالم، شيخ الإسلام، مفتي المسلمين، شمس الدين، أبو عبد الله بن أبي بكر أيوب، إمام المدرسة الجوزية، رحمه الله تعالى:

لكل داء دواء:

* الحمد لله، أما بعد، فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ما أنزل الله داء إلا أنزل الله له شفاء"[١].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل داء دواء، فإذا أصاب الداء الدواء برأ بإذن الله"[٢].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك[٣] عن النبي ﷺ قال: "إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله" وفي لفظ: "إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، أو دواء، إلا داء واحدًا" قالوا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: "الهرم" قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

دواء العي السؤال:

وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها، وقد جعل النبي ﷺ الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء.

---

[١] أخرجه البخاري (جـ١٠/٥٦٧٨ – فتح الباري).

[٢] أخرجه مسلم (جـ٤ – السلام/٦٩) وأحمد (جـ٣ ص٣٣٥).

[٣] أخرجه أحمد (جـ٤ ص٢٧٨) بهذين اللفظين، كما أخرجه الترمذي (جـ٤/٢٠٣٨) وأبو داود (جـ٤/٣٨٥٥) وابن ماجه (جـ٢/٣٤٣٦) جميعًا من حديث أسامة بن شريك بنحو لفظه الأخير، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن ابن مسعود وأبي خزامة عن أبيه وابن عباس. وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وصححه الألباني وذكره في صحيح ابن ماجه.

فروى أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال: "خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجر، فشجه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة، وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبيﷺ أخبر بذلك، فقال: قتلوه، قتلهم الله! ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر -أو يعصب- على جرحه خرقة ثم يمسح عليها، ويغسل سائر جسده"[١].

فأخبر أن الجهل داء، وأن شفاءه السؤال.

القرآن شفاء:

* وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء، فقال تعالى: **{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ}**[٢] ، وقال: **{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}**[٣].

و "من" هنا لبيان الجنس لا لتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال: "انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلُدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يأيها الرهط، إن سيدنا لُدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أن براقٍ لكم حتى تجعلوا لي جعلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[٤] فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي، وما به قلبة، فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال

---

[١] أخرجه أبو داود (جـ١/ ٣٣٦ ، ٣٣٧) وأحمد في مسنده (جـ١ ص٣٣٠) وابن ماجه (جـ١/ ٥٧٢) وفي الزوائد: إسناده منقطع، والحديث ضعفه البيهقي والعسقلاني وغيرهما، وحسَّنه الألباني بشاهد له من حديث ابن عباس دون زيادة قوله: "ويعسر" فإنه ضعفها واستنكرها، لتفرد الطريق الضعيف بها.
انظر صحيح ابن ماجه، وتمام المنة.

[٢] الآية: ٤٤ من سورة فصلت.

[٣] الآية: ٨٣ من سورة الإسراء.

[٤] أي سورة الفاتحة.

الذي رقى: لا نفعل حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال: "وما يدريك أنها رقية؟" ثم قال: "قد أصبتم، اقتسموا واضربوا لي معكم سهمًا"[١].

فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأنه لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء.

ومكثت بمكة مدة يعتريني أدواء ولا أجد طبيبًا ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرًا عجيبًا، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألمًا، فكان كثير منهم يبرأ سريعًا.

* ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة وهمة الفاعل؛ وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع[٢] فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة ذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء.

الدعاء يدفع المكروه:

* وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه، إما لضعفه في نفسه -بأن كون دعاء لا يحبه الله، لما فيه من العدوان- وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًا، فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، ورين[٣] الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها.

كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة"[٤].

---

[١] أخرجه البخاري (جـ٤/ ٢٢٧٦ - فتح الباري) (جـ١٠/ ٥٧٣٦ - فتح الباري) أخرجه مسلم (جـ٤ - السلام/ ٦٥ ، ٦٦) وغيرهما.

[٢] ينجع فيه الدواء: أي ينفع ويظهر أثره.

[٣] الرين: الران وهو الغطاء والحجاب الكثيف.

[٤] أخرجه الحاكم في المستدرك (جـ١ ص ٤٩٣) وتمامه: "واعلموا أن الله لا يقبل دعاءً من قلب غافل لاهٍ" وقال الحاكم: "مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري، وهو أحد زهاد البصرة ولم يخرجاه" وتعقبه الذهبي قال: "صالح متروك". =

دعاء الغافل:

* واعلموا "أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهٍ" فهذا دواء نافع مزيل للداء، ولكنغفلة القلب عن الله تبطل قوته، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها.

كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يأيها النـــاس، إن الله طيب، لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: **{يَا أَيُّهَا الرُّسُـــلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}**[1]، وقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}**[2]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: "يا رب يا رب، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك؟"[3].

وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه "أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجًا، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم: أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليَّ أكفّاً سفتكم بها الدماء، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشـــتد غضـــبي عليكم؟ ولن تزدادوا مني إلاّ بعدًا".

وقال أبو ذر: يكفي من الدعاء مع البر، ما يكفي الطعام من الملح.

فصل: الدعاء من أنفع الأدوية:

* والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدفعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن.

كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب ﷺ، قال: قال رســـول الله ﷺ: "الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض"[4].

= **قلت:** وأخرجه الترمذي (جـــ٤/ ٣٤٧٩) بتمامه، من طريق صالح المري أيضًا وقال: "هـــذا حـــديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه" كما أخرجه أحمد (جـــ٢ ص ١٧٧) بنحو معناه من حـــديث ابـــن عمرو مرفوعًا قال: "القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجـــل أيهـــا النـــاس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل" وفي إسناده "عبد الله بن لهيعة" وهو ضعيف، وبه استشهد الألباني للحديث فحسنه، انظر سلسلة الصحيحة (٥٩٤).

[1] الآية: ٥١ من سورة المؤمنون.

[2] الآية: ١٧٢ من سورة البقرة.

[3] أخرجه مسلم (جـــ٢ – الزكاة/٦٥) كما أخرجه الترمذي وأحمد والدارمي.

[4] أخرجه الحاكم (جـــ١ ص٤٩٢) وقال: "صحيح" ووافقه الذهبي، ولكن ذكره الألباني في سلسلة الضـــعيفة (١٧٩) معزوّاً للحاكم وابن عدي والقضاعي وقال: "حديث موضوع".

للدعاء مع البلاء مقامات:

* وله مع البلاء ثلاثة مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيُصاب به العبد، ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفاً.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: "لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة"[١].

وفيه أيضًا من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: "الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء".[٢]

وفيه أيضًا من حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال: "لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمل إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه"[٣].

فصل: الإلحاح في الدعاء:

* ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء.

وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من لم يسأل الله يغضب عليه"[٤].

وفي صحيح الحاكم من حديث أن عن النبي ﷺ: "لا تعجزوا في الدعاء، فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد"[٥].

---

[١] أخرجه الحاكم (جـ١ ص٤٩٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي، ولكن حسنه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (جـ٦/ ٧٦١٦) فلعلَّ ذلك بشاهد له.

[٢] أخرجه الحاكم (جـ١ ص٤٩٣) وسكت عليه، وتعقبه الذهبي وحسنه الألباني أيضًا، صحيح الجامع الصغير (٣٤٠٣).

[٣] أخرجه الحاكم (جـ١ ص٤٩٣) وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي.

[٤] أخرجه ابن ماجه (جـ٢/ ٣٨٢٧) وحسنه الألباني ولفظه في ابن ماجه: "من لم يدعُ..".

[٥] أخرجه الحاكم (جـ١ ص٤٩٤) وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وتعقبه الذهبي، وقال الألباني في ضعيف الجامع الصغير: "ضعيف جدّا".

وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يحب الملحين في الدعاء".

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال: قار مورِّق: "ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجلاً في البحر على خشبة، فهو يدعو يا رب يا رب، لعل الله عز وجل أن ينجيه".

فصل: من آفات الدعاء:

* ومن الآفات التي تمنع ترتيب أثر الدعاء عليه: أن يستعجل العبد، ويستبطئ الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذرًا أو غرسًا فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "يستجاب لأحدكم ما لم يجعل، يقول: دعوت فلم يستجب لي"[1].

وفي صحيح مسلم عنه: "لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل" قيل: يا رسول الله وما الاستعجال؟ قال: "يقول: قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء"[2].

وفي مسند أحمد حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل" قالوا: يا رسول الله، كيف يستعجل؟ قال: "يقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي"(٣).

فصل: أوقات الإجابة:

* وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة – وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وإدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر، وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعًا ورقّة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألح عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

---

[1] أخرجه البخاري (جـ١/ ٦٣٤٠ – فتح الباري) ومسلم (جـ٤ – الذكر/ ٩٠ ، ٩١) وغيرهما.

[2] أخرجه مسلم (جـ٤ – الذكر/ ٩٢).

[3] أخرجه أحمد (جـ٢ ص٣٩٦).

أدعية مأثورة:

* فمنها ما في السنن وفي صحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: "اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنتَ الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب" وفي لفظ "لقد سألت الله باسمه الأعظم"[١].

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضًا من حديث أنس بن مالك "أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: "لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى"[٢].

أخرج الحديثين الإمام أحمد في مسنده.

وفي جامع الترمذي، من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: "اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين"[٣]: {**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**}[٤] ، وفاتحة آل عمران: {**الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**}[٥] قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: "ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام"[٦] يعني تعلقوا بها والزموا وداوموا عليها.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء، وإذا اجتهد في الدعاء قال: "يا حي يا قيوم"[٧].

---

[١] أخرجه الترمذي (جـ٤/ ٣٤٧٥) وحسنه، وأبو داود (جـ٢/ ١٤٩٣ ، ١٤٩٤) وابن ماجه (جـ٢/٣٨٥٧) وأحمد (جـ٥ ص٣٤٩، ٣٩٠) وصححه الألباني.

[٢] أخرجه أبو داود (جـ٢/ ١٤٩٥) والنسائي (جـ٣ ص٥٢) وابن ماجه (جـ٢/ ٣٨٥٨) وأحمد (جـ٣ ص١٢٠، ٢٤٥) والحديث صححه الألباني.

[٣] أخرجه الترمذي (جـ٤/ ٣٤٧٨) وقال: حسن صحيح.

[٤] الآية: ١٦٣ من سورة البقرة.

[٥] الآيتان: ١، ٢ من سورة آل عمران.

[٦] ألظوا: الزموا، يُقال: ألظَّ بالشيء إذا لزمه وثابر عليه، والحديث أخرجه أحمد (جـ٤ ص١٧٦) والحاكم (جـ١ ص٤٩٩) وسكت عنه الحاكم والذهبي، وأخرجه الترمذي عن أنس (جـ٤/٣٥٢٥) والحديث صححه الألباني، في صحيح الجامع الصغير (٤٣٦١).

[٧] أخرجه الترمذي (جـ٤/ ٣٤٣٦) وقال: حسن غريب، وضعفه الألباني، ضعيف الجامع الصغير (١٢٦١).

وفيه أيضًا من حديث أنس بن مالك، قال: "كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر قال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث"[١].

وفي صحيح الحاكم من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: "اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن: البقرة، وآل عمران، وطه"[٢] قال القاسم: فالتمستها فإذا هي آية {**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**}[٣].

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: "دعوة ذي النون، إذ دعا وهو في بطن الحوت: {**لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**}[٤]، إنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلاّ استجاب الله له"[٥] قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي مستدرك الحاكم أيضًا من حديث سعد عن النبي ﷺ: "ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يفرج الله عنه؟ دعاء ذي النون"[٦].

وفي صحيحه أيضًا عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول: "هل أدلكم على اسم الله الأعظم؟ دعاء يونس" قال رجل: يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصة؟ فقال: "ألا تسمع قوله تعالى: {**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**}[٧].

فأيما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك أعطي أجر شهيد، وإن برئَ برئ مغفورًا له"[٨].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم".

---

[١] أخرجه الترمذي (جـ٤/ ٣٥٢٤) وقال غريب.

[٢] أخرجه الحاكم (جـ١ ص٥٠٥) وسكت عنه الحاكم والذهبي.

[٣] الآية: ٢ من سورة آل عمران.

[٤] الآية: ٨٧ من سورة الأنبياء.

[٥] ذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير وصححه برقم (٢٦٠٢).

[٦] أخرجه الحاكم (جـ١ ص٥٠٥).

[٧] الآية: ٨٨ من سورة الأنبياء.

[٨] أخرجه الحاكم (جـ١ ص٥٠٥: ٥٠٦) وسكت عنه الحاكم والذهبي.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث علي بن أبي طالب ﷺ قال: "علمني رسـول الله ﷺ إذا نزل بي كرب أن أقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العـرش العظيم، والحمد لله رب العالمين"[١].

وفي مسنده أيضًا من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبد ابن أمَتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علّمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلاّ أذهب الله عز وجل همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا" فقيل: يا رسول الله، أ لا نتعلمها؟ قال: "بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها"[٢].

قال ابن مسعود: "ما كرب نبي من الأنبياء إلاّ استغاث بالتسبيح".

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين، وفي الدعاء عن الحسن قال: "كان رجلٌ مـن أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق، وكان تاجرًا يتجر بمال له ولغيره، ويضـرب به في الآفاق، وكان ناسكًا ورعًا فخرج مرة فلقيه لص مقنع في السلاح، فقال له: ضـع مـا معك، فإني قاتلك، قال: ما تريده من دمي؟ شأنك بالمال، قال: أما المال فلي، ولست أريـد إلا دمك، قال: أما إذ أبيت فذرني أصلي أربع ركعات، قال: صل ما بدا لك، فتوضأ ثـم صـلى أربع ركعات، فكان من دعائه في آخر سجوده أن قال: يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد يا فعالاً لما تريد، اسألك بعزك الذي لا يُرام، وبملكك الذي لا يُضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، ثلاث مرات، فإذا هو بفارس قد أقبل بيـده حربة قد وضعها بين أذني فرسه، فلما بصر به اللص أقبل نحوه، فطعنه فقتله، ثم أقبل إليـه فقال: قم، فقال: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقد أغاثني الله بك اليوم، فقال: أنا ملك مـن أهـل السماء الرابعة –دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة، ثم دعوت بدعائك الثالث، فقيل لي: دعاء مكروب، فسألت الله أن يوليني قتله، قال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركعات، ودعا بهذا الدعاء، اسـتُجيبَ لـه مكروبًا، كان أو غير مكروب"[٣].

---

[١] لم أقف عليه من حديث علي وإنما وجدته في المسند (جـ١ ص٢٠٦) من حديث ابن أخيه عبد الله ابـن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعًا.

[٢] أخرجه أحمد (جـ١ ص٣٩١).

[٣] انظر "مجابو الدعوة" (٢٣) للحافظ ابن أبي الدنيا.

فصل: ظروف الدعاء:

* وكثيرًا ما تجد أدعية دعا بها قومٌ فاستُجيبَ لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضـــرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرًا لحسنته، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك، فأجيبت دعوته، فيظن الظان أن السر في لفظ الدعاء، فيأخـــذه مجردًا عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي، وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعًا في الوقت الذي ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به، فظن غيره أن اســـتعمال هـــذا الدواء بمجرده كافٍ في حصول المطلوب، كان غالطًا، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس.

من هذا أنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيظن الجاهل أن السر للقبر، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان أفضل وأحب إلى الله.

فصل: شروط الدعاء المستجاب:

* والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقـــط، فمتـــى كـــان السلاح سلاحًا تامًا لا آفة به، والساعد قوي، والمانع مفقود –حصلت النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة، لم يحصل الأثر.

فصل: الدعاء والقدر:

* وههنا سؤال مشهور، وهو:

أن المدعو به إن كان قد قُدِّر لم يكن بد من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قد قدر لم يقطع، سواء سأله العبد أو لم يسأله.

فظنت طائفة صحة هذا السؤال، فتركت الدعاء، وقالت: لا فائدة فيه، وهؤلاء مع فـــرط جهلهم وضلالهم – متناقضون، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب فيقال لأحدهم:

إن كان الشبع والري قد قُدِّرا لك فلا بد من وقوعهما، أكلت أو لم تأكل، وإن لم يقدرا لم يقعا، أكلت أو لم تأكل.

وإن كان الولد قد قدر لك فلا بد منه، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ، وإن لم يقدر ذلك لم يكن، فلا حاجة إلى التزوج والتسري، وهلم جرًا.

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

وتكايس بعضهم، وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما، ولا فرق عند هذا المتكيس بين بالدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب، وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت، ولا فرق.

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه وتعالى أمارة على قضاء الحاجة، فمتى وفق الله العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد انقضت، وهذا كما إذ رأيت غَيمًا أسود باردًا في زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر.

قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب والكفر والمعاصي مع العقاب، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنها أسباب له.

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار، والحرق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل، ليس شيء من ذلك سببًا ألتة، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه، إلا مجرد الاقتران العادي، لا التأثير السببي، وخالفوا بذلك الحس والعقل، والشرع والفطرة، وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء.

- وللصواب: أن ههنا قسمًا ثالثًا، غير ما ذكره السائل، وهو أن هذا المقدور قُدِّر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدر مجردًا عن سببه، ولكن قدر سببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهذا كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال، وهذا القسم هو الحق، وهذا الذي حرمه السائل ولم يوفق له.

الدعاء من أقوى الأسباب:

* وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب.

عمر يستنصر بالدعاء:

* ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم في دينه، كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يستنصر به على عدوه، وكان أعظم جنده، وكان يقول لأصحابه: "لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء" وكان يقول: "إني لا أحمل همَّ الإجابة ولكن همَّ الدعاء، فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه" وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه، فقال:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه

من جود كفيك ما عودتني الطلبا

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة، فإن الله سبحانه يقول: {**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**}(١)، وقال: {**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**}(٢).

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من لم يسأل الله يغضب عليه"(٣).

وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته، وإذا رضي الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه، كما أن كل بلاء ومعصية في غضبه.

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد أثرًا: "أنا الله، لا إله إلا أنا، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد".

وقد دلّ العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم – على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها – على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله تعالى، واستدفعت نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه.

ارتباط الخير والشر بالعمل:

* وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على الألف موضع.

فتارة يرتب الحكم الخيري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له، كقوله تعالى: {**فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**}(٤).

---

(١) الآية: ٦٠ من سورة غافر.

(٢) الآية: ١٨٦ من سورة البقرة.

(٣) أخرجه ابن ماجه (جـ٢/ ٣٨٢٧) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٤) الآية: ١٦٦ من سورة الأعراف.

وقوله: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}[١].

وقوله: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا}[٢]

وقوله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}[٣]

وتارةً يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى: {إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ}[٤]

وقوله تعالى: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}[٥].

وقوله تعالى: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً}[٦].

وتارة يأتي بلام التعليل كقوله: {لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ}[٧].

وقوله تعالى: {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}[٨].

وتارة يأتي بأداء "كي" التي للتعليل، كقوله تعالى: {كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ}[٩].

وتارة يأتي بباء السببية، كقوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ}[١٠]، وقوله: {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[١١]، وقوله: {بما كنتم تكسبون}[١٢]، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}[١٣].

وتارة يأتي بالمفعول لأجله ظاهرًا أو محذوفًا، كقوله تعالى: {فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى}[١٤].

وكقوله تعالى: {أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}[١٥].

وقوله: {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا}[١٦]، أي كراهة أن تقولوا.

---

[١] الآية: ٥٥ من سورة الزخرف.

[٢] الآية: ٣٨ من سورة المائدة.

[٣] الآية: ٣٥ من سورة الأحزاب.

[٤] الآية: ٢٩ من سورة الأنفال.

[٥] الآية: ١١ من سورة التوبة.

[٦] الآية: ١٦ من سورة الجن.

[٧] الآية: ٢٩ من سورة ص.

[٨] الآية: ١٤٣ من سورة البقرة.

[٩] الآية: ٧ من سورة الحشر.

[١٠] الآية: ١٨٢ من سورة آل عمران.

[١١] الآية: ١٠٥ من سورة المائدة.

[١٢] الآية: ١٢٩ من سورة الأنعام.

[١٣] الآية: ١١٢ من سورة آل عمران.

[١٤] الآية: ٢٨٢ من سورة البقرة.

[١٥] الآية: ١٧٢ من سورة الأعراف.

[١٦] الآية: ١٥٦ من سورة الأنعام.

وتارة يأتي بفاء السببية، كقوله: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهِمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا}[١] وقوله: {فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً}[٢]، وقوله: {فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ}[٣].

وتارة يأتي بأداة "لما" الدالة على الجزاء كقوله: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}[٤]، ونظائره. وتارة يأتي بإن وما عملت فيه، كقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَات}[٥].

وقوله في ضد هؤلاء: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}[٦].

وتارة يأتي بأداة "لولا" الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها كقوله: {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[٧].

وتارة يأتي بـ "لو" الدالة على الشرط، كقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُم}[٨].

وبالجملة: فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال.

* ومن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل على القدر جهلاً منه، وعجزًا وتفريطًا وإضاعة؛ فيكون توكله عجزًا وعجزه توكلاً، بل الفقيه كل الفقه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر.

والخلق كلهم ساهون في دفع هذا القدر بالقدر.

وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدَر العقوبة الأخروية بقـدَر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا وما يضاده سواء، فرب الدارين واحد،

---

[١] الآية: ١٤ من سورة الشمس.

[٢] الآية: ١٠ من سورة الحاقة.

[٣] الآية: ٤٨ من سورة المؤمنون.

[٤] الآية: ٥٥ من سورة الزخرف.

[٥] الآية: ٩٠ من سورة الأنبياء.

[٦] الآية: ٧٧ من سورة الأنبياء.

[٧] الآيتان: ١٤٣ ، ١٤٤ من سورة الصافات.

[٨] الآية: ٦٦ من سورة النساء.

وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها، ورعاها حق رعايتها، والله المستعان.

لكن يبقى عليه أمران بها تتم سعادته وفلاحه.

أحدهما: يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جربه في نفسه وغيره، وما سمعه في أخبار الأمم قديمًا وحديثًا.

التاريخ تفصيل لِما جاء عن الله:

* ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعًا مفصلة مبينة، ثم السنة، فإنها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما، وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما، حتى كأنك تعاين ذلك عيانًا، وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة؛ فالتاريخ تفصيل لجزيئات ما عرفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر.

فصل: مغالطة النفس حول الأسباب:

* **الأمر الثاني:** أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب، وهذا من أهم الأمور؛ فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو ربه ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء تارة، وبالاقتداء بالأكابر تارة.

خطأ في فهم الاستغفار:

* وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: "أستغفر الله" زال الذنب، وراح هذا بهذا، وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل ثم أقول: سبحان الله وبحمده مائة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: "من قال في يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر"(١) وقال لي آخر من أهل مكة: نحن إذا فعل أحدنا ما فعل اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا وقد محي عنه ذلك، وقال لي آخر: قد

(١) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، صحيح الجامع الصغير.

صح عن النبي ﷺ أنه قال: "أذنب عبد ذنبًا فقال: أي رب أصبت ذنبًا فاغفر لي، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أي رب، أذنبت ذنبًا فاغفر لي، فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، فليصنع ما شاء"[١] قال: وأنا لا أشك أن لي ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء، واتكل عليها، وتعلق بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيهما سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء، وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب، كقول بعضهم:

وكثر ما استطعت من الخطايا

إذا كان القدوم على كريم

وقوله الآخر: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله.

وقول الآخر: ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار.

وقال محمد بن حزم: رأيت بعض هؤلاء يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من العصمة.

التعلق بالجبر:

* ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر، وأن العبد لا فعل له ألبتة ولا اختيار وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

التعلق بالإرجاء:

* ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء، وأن الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

الخطأ في الحب:

* ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين، وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم، والاستشفاع بهم، والتوسل إلى الله بهم، وسؤاله بحقهم عليه، وحرمتهم عنده.

---

[١] أخرجه البخاري ومسلم وأحمد، انظر كتابنا صحيح الأحاديث القدسية (٢٤٩ ، ٢٥٠).

ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه، وأن لهم عند الله مكانًا وصلاحًا، فلا يدعوه أن يخلصوه، كما يشاهد في حضرة الملوك، فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته.

الاغترار بالله:

* ومنهم من يغتر بأن الله عز وجل غني عن عذابه، وعذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته لا تنقص من ملكه شيئًا، فيقول: أنا مضطر إلى رحمته وهو أغنى الأغنياء، ولو أن فقيرًا مسكينًا مضطرًا إلى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها، فالله أكرم وأوسع، والمغفرة لا تنقصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا.

الاغترار بالفهم الفاسد والقرآن والسنة:

* ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة، فاتكلوا عليه، كاتكال بعضهم على بعض على قوله تعالى **{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}**(١)، وهو لا يرضى أن يكون في النار، وهذا من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه، فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل، والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر، فحاشا رسوله أن لا يرضى بما يرضه به ربه تبارك وتعالى.

وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}**(٢)، وهذا أيضًا من أقبح الجهل، فإن الشرك غير داخل في هذه الآية، فإنه رأس الذنوب وأساسها، ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أي ذنب كان، ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها.

وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة.

وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه، فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}(٣).

فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره.

وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}**(٤).

---

(١) الآية: ٥ من سورة الضحى.

(٢) الآية: ٥٣ من سورة الزمر.

(٣) الآية: ٤٨ من سورة النساء.

(٤) الآية: ٦ من سورة الانفطار.

فيقول: كرمه، وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته، وهذا جهل قبيح، وإنما غره به الغرور، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه، وأتى سبحانه بلفظ "الكريم" وهو السيد العظيم المُطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه، فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به.

كاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: {**لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى**}[1].

وقوله: {**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**}[2].

ولم يدر المغتر أن قوله: {**فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى**}[3] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها، بل قال: {**لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى**}[4] ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها، فإن الصلي أخص من الدخول، نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضموناً له أن يجنبها.

وأما قوله في النار: {**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**} فقد قال في الجنة: {**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**}[5].

ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة، ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ولم يعمل خيرًا قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء، أو يوم عرفة، حتى يقول بعضهم: صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر، ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنب الكبائر.

فرمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة لا يقويان في تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر.

فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها، غير تائب منها؟ هذا محال، على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفرًا لجميع ذنوب العام على عمومه، وتكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير، فإذا لم يصر على الكبائر لتساعد الصوم وعدم الإصرار، وتعاونهما على

---

[1] الآيتان: ١٥ ، ١٦ من سورة الليل.

[2] الآية: ٢٤ من سورة البقرة.

[3] الآية: ١٤ من سورة الليل.

[4] الآية: ١٢ من سورة الليل.

[5] الآية: ١٣٣ من سورة آل عمران.م

عموم التكفير، كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر، مع أنه سبحانه قد قال: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}[٦].

فعلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل.

حسن الظن بالله:

* وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ حاكيًا عن ربه "أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء"[١] يعني ما كان في ظنه فإني فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه إحسانه ولا يخلف وعده، ويقبل توبته.

وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد، فإن العبد الآبق الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظنًا بربه أطوعهم له، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه، حالٌّ مرتحلٌ في مساخطه وما يغضبه متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه؟ وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات له، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسول ﷺ وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟ وكيف يحسن الظن من يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب، وقد قال الله تعالى في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السر من القول: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[٢].

فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخل الجنة كان هذا غرورًا وخداعًا من نفسه، وتسويلاً من الشيطان، لا إحسان ظن بربه.

---

[٦] الآية: ٣١ من سورة النساء.

[١] حديث قدسي صحيح مخرج في الصحيحين وغيرهما، صحيح الأحاديث القدسية (٢٥٧ : ٢٦٦).

[٢] الآية: ٢٣ من سورة فصلت.

فتأمل هذا الموضع، وتأمل شدة الحاجة إليه، وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه، ومسئول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه مضيع لأوامره، معطل لحقوقه، وهو مع هذا يحسن الظن به، وهل هذا إلا من خدع النفوس، وغرور الأماني.

وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: "دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت: لو رأيتُما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عنده ستة دنانير، أو سبعة دنانير، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها، فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها فقال: "ما فعلت؟ أكنت فرقت الستة دنانير؟" فقتل: لا والله، لقد كان شغلني وجعك، قالت: فدعا بها فوضعها في كفه، فقال: ما ظن نبي الله لو لقى الله وهذه عنده؟" وفي لفظ "ما ظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده"[1].

فيالله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم؟ فإن كان ينفعهم قولهم: حسن ظنوننا بك أنك لن تعذب ظالمًا ولا فاسقًا، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله، فإن النار لا تمسه، فسبحان الله؟! ما يبلغ الغرور بالعبد، وقد قال إبراهيم لقومه: {أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[2]، أي ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

حسن الظن هو حسن العمل:

* ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمله على حسن العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما جاء في حديث الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: "الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله"[3].

---

[1] أخرجه أحمد وهناد وابن عساكر، انظر كنز العمال (جـ٣/ ٦٣٦٩).

[2] الآيتان: ٨٦ ، ٨٧ من سورة الصافات.

[3] ضعفه الألباني من حديث شداد بن أوس معزوّا لأحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم، ضعيف الجامع الصغير (٤٣١٠).

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى حسن الظن.

الفرق بين حسن الظن والغرور:

* **فإن قيل:** بل يتأتى ذلك، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته، وعفوه، وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة، ولا يضره العفو.

قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة، والعزة والانتقام، وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض للعنته، ووقع في محارمه، وانتهك حرماته، بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع، وبدل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظن بعدها فهذا هو حسن ظن، والأول غرور، والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل، فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به، قال الله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**(1)، فجعل هؤلاء أهل الرجاء، لا البطالين والفاسقين.

قال تعالى: **{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}**(2)، فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها.

فالعالم لم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضع في غير مواضعه.

فصل: الذين اعتمدوا على عفو الله فضيعوا أمره ونهيه:

* وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، فضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

---

(1) الآية: ٢١٨ من سورة البقرة.

(2) الآية: ١١٠ من سورة النحل.

وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة نحو هذا.

وقيل للحسن: أراكَ طويل البكاء؟ فقال: أخاف أن يطرحني ولا يبالي.

وكان يقول: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد تطير قلوبنا؟ فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفوك حتى تدرك أمنًا، خير من أن تصحب أقوامًا يؤمنوك حتى تلحقك المخاوف.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندق أقتاب بطنه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار فيقولون: يا فلان، ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه"[(١)].

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: "مر رسول الله ﷺ بالبقيع فقال: أف لك، فظننت يريدني، فقال: لا، ولكن هذا قبر فلان، بعثته ساعيًا إلى آل فلان، فغل نمرة فدرِّع الآن مثلها من نار"[(٢)].

وفي مسنده أيضًا من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "مررت ليلة أُسري بي على قوم تقرضهم شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أمتك من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم"[(٣)].

وفيه أيضًا من حديثه، قال: قال رسول الله ﷺ: "لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم"[(٤)].

وفيه أيضًا عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك" فقلنا: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: "نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء"[(٥)].

[(١)] أخرجه البخاري (جـ٦/ ٣٢٦٧ – فتح الباري) ومسلم (جـ٤/ الزهد/ ٥١).

[(٢)] أخرجه أحمد (جـ٦ ص٣٩٣) وفيه رجل مجهول الحال من آل أبي رافع يقال له: منبوذ.

[(٣)] أخرجه أحمد (جـ٣ ص١٨٠) وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.

[(٤)] أخرجه أحمد (جـ٣ ص ٢٢٤) وصححه الألباني، انظر سلسلة الصحيحة (٥٣٠).

وفيه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: "ما لي لم أر ميكائيل ضاحكًا قط؟ قال: ما ضحك منذ خُلقت النار"(١).

وفي صحيح مسلم عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا بن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرّ بي قط ولا رأيت شدة قط"(٢).

وفي المسند من حديث البراء بن عازب(٣) قال: "خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولمَّا يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر –مرتين أوثلاثًا– ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان أهل الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: روح فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة؛ فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فقال: فتعاد روحه إلى الأرض، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربي الله عز وجل،

---

(٥) أخرجه أحمد (جـ٣ ص١١٢ ، ٢٥٧) من حديث أنس، وبنحوه (جـ٦ ص٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها (جـ٦ ص٢٩٤، ٣١٥) من حديث أم سلمة، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير مختصرًا وصححه.

(١) أخرجه أحمد (جـ٣ ص٢٢٤) عن أنس وإسناده ضعيف لجهالة راويه حميد بن عبيد مولى بني المعلى، انظر تعجيل المنفعة.

(٢) أخرجه مسلم (جـ٤ – صفات – المنافقين/ ٥٥) وأحمد (جـ٣ ص٢٠٣) وابن ماجه بنحوهما (جـ٢/٤٣٢١).

(٣) حديث البراء بن عازب حديث صحيح أخرجه أحمد (جـ٤ ص٢٨٧/٢٨٨) وأبو داود (جـ٤/ ٤٧٥٣) والطيالسي (٧٥٣) وعبد الرزاق (٦٧٣٧) والحاكم (جـ١ ص٣٧) انظر صحيح الأحاديث القدسية.

فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو محمد رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله عز وجل فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، فافرشوا له من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبتل فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: روح فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له.

ثم قرأ رسول الله ﷺ: **{لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}**[١].

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا.

ثم قرأ: **{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}**[٢].

فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة".

---

[١] الآية: ٤٠ من سورة الأعراف.

[٢] الآية: ٣١ من سورة الحج.

وفي لفظ لأحمد أيضًا: "ثم يقيض له أعمى أصم أبكم، في يده مرزبة، لو ضــرب بهــا جبلاً كان ترابًا، ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين" قال البراء: "ثم يفتح له باب إلى النار، ويمد له من فراش النار".

وفي المسند أيضًا عنه قال: "بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة فقال: علام اجتمع هؤلاء؟ قيل: على قبر يحفرونه، ففزع رسول الله ﷺ ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر، فجثا على ركبتيه، فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بــل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: أي إخواني، لمثل هذا اليوم فأعدوا"[١].

وفي المسند من حديث بريدة قال: "خرج إلينا رسول الله ﷺ يومًا فنادى ثلاث مــرات: يأيها الناس، أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوّا يأتيهم فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فأبصر العدو، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركــه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس أُتيتم، أيها الناس أُتيتم، ثلاث مرات"[٢].

---

[١] أخرجه أحمد (جـ٤ ص٢٩٤) وابن ماجه (جـ٢/ ٤١٩٥) وفي إسنادهما محمد بن مالك مولى البراء بن عازب، وقيل: خادمه، ذكره ابن حبان في الثقات وقال: "لم يسمع من البراء شيئًا" وذكره فــي الضــعفاء وقال: "كان يخطئ كثيرًا لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد" والحديث حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (جـ٢/ ٣٣٨٣) وفي سلسلة الصحيحة (١٧٥١) وزاد عزوه للبخاري في "تاريخه" والخطيب في "تاريخه" والروياني في "مسنده" ولأبي بكر الشافعي في "مجلسان" جميعًا عن محمد بن مالك عن البراء بن عازب، وردَّ قول ابن حبان في نفي سماع محمد بن مالك من البراء شيئًا بما ذكره من تعقب الحافظ ابن حجر له في "التهذيب" بإيراده رواية أخرى لمحمد بن مالك قال: "رأيت على البراء خاتمًا من ذهب وكــان النــاس يقولون له: لم تختتم بالذهب وقد نهى عنه النبيﷺ؟ فقال البراء... بقية القصة" قال الألباني: فهــذا ينفــي قول ابن حبان أنه لم يسمع من البراء إلا أن يكون عنده غير صادق فما كان ينبغي له أن يورده في كتاب "الثقات". اهـ.

قلت: وهو كلام جيد في نفي زعم ابن حبان عدم سماع محمد بن مالك من البراء ولكن يبقى ما أثبته ابن حبان من جرحه بذكره في الضعفاء وقوله فيه: "كان يخطئ كثيرًا لا يجوز الاحتجاج بــه إذا انفــرد" ولا يرده ما ذكره من نقل ابن أبي حاتم عن أبيه أنه: "لا بأس به" فهو توثيق لين يكتب حديث صاحبه وينظــر فيه، وذاك جرح ظاهر في حفظه، ولذلك قال الحافظ ابن حجر في "التقريب" في ترجمته: صدوق يخطــئ كثيرًا، فالحديث إسناده دون الحسن. والله تعالى أعلم.

[٢] أخرجه أحمد (جـ٥ ص٣٤٨).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ "كل مسكر حرام، وإن على الله عز وجل عهدًا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال، قيل: وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار أو عصارة أهل النار"[٣].

وفي المسند أيضًا من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ : "إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء[١] وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات[٢] تجأرون إلى الله عز وجل"[٣] قال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد[٤].

وفي المسند أيضًا من حديث حذيفة قال: "كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه، فجعل يردد بصره فيه، ثم قال: يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله، ويملأ على الكافر نارًا" والحمائل عروق الأنثيين[٥].

وفي المسند أيضًا من حديث جابر قال: "خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفي، فلما صلى عليه رسول الله ﷺ ووضع في قبره، وسوي عليه، سبَّح رسول الله ﷺ ، فسبّحنا طويلاً، ثم كبّر فكبّرنا، فقيل: يا رسول الله: لم سبّحت ثم كبّرت؟ فقال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه"[٦].

وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ : "إذا وضعت الجنازة، واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها، أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق"[٧].

---

[٣] أخرجه مسلم (جـ٤ – الأشربة/ ٧٢).

[١] أخرجه أحمد (جـ٥ ص١٧٣) والترمذي (جـ٤/ ٢٣١٢) وقال: "حسن غريب" وابن ماجه (جـ٢/ ٤١٩٠) والحاكم (جـ٢ ص٥١٠) وقال: "صحيح الإسناد" والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (جـ٢/ ٢٤٤٥).

[٢] أطت السماء: الأطيط صوت الأقتاب، وأطيط الإبل أصواتها وحنينها، أي إن كثرة الملائكة في السماء قد أثقلها حتى أطت، وهذا كناية عن كثرة الملائكة أريد بها تقرير عظمة الله تعالى.

[٣] الصعدات: الطرق، تجأرون، ترفعون أصواتكم بالدعاء.

[٤] تعضد: تقطع.

[٥] أخرجه أحمد (جـ ص٤٠٧).

[٦] أخرجه أحمد (جـ٣ ص٣٦٠).

[٧] أخرجه البخاري (جـ٣ / ١٣١٤ – فتح الباري).

[٨] أخرجه أحمد (جـ٥ ص٢٥٤).

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : "تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلي منها الرؤوس كما تغلي القدور، يعرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق"(٨).

وفيه عن ابن عباس عن النبي ﷺ : "كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ، فقال أصحابه: كيف نقول؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا"(١).

وفي المسند أيضًا عن ابن عمر يرفعه: "من تعظم في نفسه، أو اختال في مشيته، لقي الله تعالى وهو عليه غضبان"(٢).

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "إن المصورين يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم".

وفيهما أيضًا عن النبي ﷺ : "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة".

وفيهما أيضًا عنه عن النبي ﷺ : "إذا صار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم".

وفي المسند عنه قال: "من اشترى ثوبًا بعشرة دراهم وفيه درهم حرام لم يقبل الله له صلاة مادام عليه" ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ثم قال صُمَّتا إن لم يكن النبي ﷺ سمعته يقوله.

وفيه عند عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ ، قال: "من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسُلبها، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات كان حقّا على الله عز وجل أن يسقيه من طينة الخبال، قيل: وما طينة الخبال، يا رسول الله؟ قال عصارة أهل جهنم"(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (جـ١ ص٣٢٦).

(٢) ذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٠٣٣) وصححه.

(٣) أخرجه أحمد (جـ٢ ص١٧٨).

وفيه أيضًا مرفوعًا: "من شرب الخمر مرة لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: فإن عاد كان حقًا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة"[٤].

وفي المسند أيضًا من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ : "من مات مدمنًا للخمر سقاه الله عز وجل من نهر الغوطة، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر يجري من فروج المومسات، يؤذي أهل النار ريح فروجهم".

وفيه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ : "يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله".

وقال في المسند أيضًا من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها"[١].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "يضرب الجسر على جهنم، فأكون أول من يجوز، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وعلى حافتيه كلاليب مثل شوك السعدان، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له: ماء الحياة فينبتون نبات الحبة في حميل السيل".

وفي صحيح مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى قُتلت؟ قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال: هو جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، فقال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال هو عالم، فقد قيل، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به

---

[٤] أخرجه أحمد (جـ٢ ص١٨٩) وابن ماجه (جـ٢/ ٣٣٧٧) وصححه الألباني.

[١] أخرجه أحمد (جـ١ ص٤٠٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٤).

فسحب على وجهه حتى ألقي في النار" وفي لفظ: "فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة".

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: كما أن خير الناس الأنبياء فشر الناس من تشبه بهم، يوهم أنه منهم وليس منهم، فخير الناس بعدهم: العلماء، والشهداء، والصديقون، والمخلصون، وشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : "من كانت عنده لأخيه مظلمة في مال أو عرض فليأته، فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح في النار".

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها".

وفي المسند عن معاذ قال: أوصاني رسول الله ﷺ فقال: "لا تشرك بالله شيئًا، وإن قتلت وحرقت، لا تعقنّ والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدًا، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمرًا، فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية، فإن المعصية تحل سخط الله".

والأحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا؛ فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها، ويرسل نفسه في المعاصي، ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نارًا على من غلها وقد قتل شهيدًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سلمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال: "دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما، قرِّب، قال ليس عندي شيء، قالوا له: قرب ولو ذبابًا، فقرَّب فخلوا سبيله فدخل النار، وقالوا للآخر: قرِّب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا من دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة، وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب".

وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير ما به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، وهذا من الغرور.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: "إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج" ثم تلا قوله عزّ وجل {**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**}[١].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره؛ فإنما هو استدراج منه يستدرجك به، وقد قال الله تعالى: {**وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**}[٢].

وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: {**فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلاَّ**}[٣].

أي ليس مَن نعَّمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته وضيّقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم وأُكرم هذا بالابتلاء.

وفي جامع الترمذي عنه ﷺ : "إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب".

وقال بعض السلف رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

فصل: الاغترار بالدنيا:

* وأعظم الخلق غرورًا من اغتر بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخرة، حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد أحسن من النسيئة.

ويقول بعضهم: ذرة منقولة، ولا درة موعودة.

---

(١) الآية: ٤٤ من سورة الأنعام.

(٢) الآيات: ٣٣ – ٣٥ من سورة الزخرف.

(٣) الآيات: ١٥ – ١٧ من سورة الفجر.

ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين بالشك.

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله، والبهائم العجم أعقل من هؤلاء، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضُربت،وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبة، وهو بين مصدق ومكذب.

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة، لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له.

وقول هذا القائل: النقد خير من النسيئة، جوابه: إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير، وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكثر وأفضل فهي خير، فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة؟.

كما في مسندا لإمام أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: "ما الدنيا في الآخرة إلاّ كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟".

فإيثار هذا النقد على النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة؟ فأيهما أولى بالعاقل؟ إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة، وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك شيء صغير حقير منقطع عن قرب، ليأخذ ما لا قيمة له ولا خطر له، ولا نهاية لعدده، ولا غاية لأمده؟

فأما قول الآخر: لا أترك متيقنًا لمشكوك فيه، فيُقال له: إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله، أو تكون على يقين من ذلك؛ فإن كنت على يقين من ذلك فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب، لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له.

وإن كنت على شك فراجع آيات الرب تعالى الدالّة على وجوده وقدرته ومشيئته، ووحدانيته، وصدق رسله فيما أخبروا به عن الله، وتجرد، وقم لله ناظرًا أو مناظرًا، حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شك فيه، وأن خالق هذا العالم ورب السموات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه على خلاف ما أخبرت به رسله عنه، ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه، وأنكر ربوبيته وملكه؛ إذ من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزًا أو جاهلاً، لا يعلم شيئًا، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يثيب، لا يعاقب، ولا يعز من يشاء، ولا يذل من يشاء، ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها، ولا يعتني بأحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملاً، وهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به، فكيف يجوز نسبه الملك الحق المبين إليه؟

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى كماله واستوائه تبين له أن من عنى به هذه العناية، ونقله في هذه الأحوال، وصرفه في هذه الأطوار، ولا يليق به أن يهمله ويتركه سدى، لا يأمره ولا ينهاه ولا يعرفه حقوقه عليه، ولا يثيبه ولا يعاقبه، ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلاً له على التوحيد والنبوة والمعاد، وأن القرآن كلامه.

وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب أيمان القرآن عند قوله تعالى: **{فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}**(١).

وذكرنا طرفًا من ذلك عند قوله: **{وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ}**(٢).

وأن الإنسان دليل على وجود خالقه وتوحيده، وصدق رسله، وإثبات صفات كماله.

فقد بان أن المضيع مغرور على التقديرين: تقدير تصديقه ويقينه، وتقدير تكذيبه وشكه.

كيف يجتمع اليقين بالمعاد، والتخلف عن العمل:

* **فإن قلت:** كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار بتخلف العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غدًا إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة، ويبيت ساهيًا غافلاً، ولا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أهبته.

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق؛ فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهذا التخلف له عدة أسباب:

أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عيانًا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك، ليزداد طمأنينة، ويصير المعلوم غيبًا شهادة.

وقد روى أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: "ليس المخبر كالمعاين"(٣).

---

(١) الآيات: ٤٨ - ٥٠ من سورة الحاقة.

(٢) الآية: ٢١ من سورة الذاريات.

(٣) أخرجه أحمد (جـ١ ص٢٧١) وابن حبان (٢٠٨٧ موارد) والبزار (جـ١/ ٢٠١) والحاكم (جـ٢ ص٣٢١) جميعًا

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل وإلف العوائد، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والبصر، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة الدين فقال تعالى: {**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**}[1].

فصل: الفرق بين حسن الظن والغرور:

* فقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور، حسن الظن هو الرجاء؛ فمن كان رجاؤه هاديًا له إلى الطاعة، وزجرًا له عن المعصية؛ فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاء، ورجاؤه بطالة وتفريطًا فهو المغرور.

ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها، وحسن ظنه بأنه يأتي مغلها ما يأتي من حرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض لعدّه الناس من أسفه السفهاء.

وكذلك لو حسن ظنه وقوي رجاؤه بأن يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحرص تام عليه، وأمثال ذلك.

فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه في الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم من غير تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره؛ واجتناب نواهيه، وبالله التوفيق.

وقد قال تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**}[2] فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات؟

وقال المغرورون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره؛ الباغين على عباده المتجرئين على محارمه، أولئك يرجون رحمة الله.

---

(1) الآية: ٢٤ من سورة السجدة.

(2) الآية: ٢١٨ من سورة البقرة.

وسر المسألة أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته؛ فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه، ويرجوه أن لا يكله إليها وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ويضرب عما يعارضها ويبطل أثرها.

فصل: الرجاء والأماني:

* وما ينبغي أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه. **الثاني:** خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "مَن خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة"[١].

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل، قال تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**}[٢].

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمور ويزنون ويسرقون؟ فقال: "لا، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات" وقد روى من حديث أبي هريرة أيضًا.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

---

[١] أخرجه الترمذي (جـ٥/ ٢٤٥٠) وقال: "حسن غريب" والحاكم (جـ٤ ص٣٠٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٠٩٨).

[٢] الآيات: ٥٧ - ٦١ من سورة المؤمنون.

خوف الصحابة من الله:

* من تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جميعًا بين التقصير، بل التفريط والأمن؛ فهذا الصدّيق ﷺ يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن. ذكره أحمد عنه.

وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكي كثيرًا، ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا.

وكان إذا قام للصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

وأتى بطائر ثم قال: ما صيد من صيد، ولا قطعت شجرة من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح، فلما احتضر قال لعائشة: يا بنية، إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب، وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد.

وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب.

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى إذا بلغ: {**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ**}[1] بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.

وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض، عساه أن يرحمني، ثم قال: بل ويل أمي إن لم يغفر لي، ثلاثًا، ثم قضى.

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه فيبقى في البيت أيامًا يعاد، يحسبونه مريضًا.

وكان في وجهه ﷺ خطان أسودان من البكاء.

وقال له ابن عباس: مصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل، فقال: وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان ﷺ ، كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبلّ لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا علي بن أبي طالب ﷺ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، ألا

---

[1] الآية: ٧ من سورة الطور.

وإن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

وهذا أبو الدرداء ﷺ كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء، قد علمت، فكيف عملت فيما علمت؟ وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد، تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل.

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد، ووددت أني لم أُخلق، وعُرضت عليه النفقة فقال: ما عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها، ومحرر يخدمنا، وفضل عباءة، وإني أخاف الحساب فيها.

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية: **{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}**[1] جعل يرددها ويبكي حتى أصبح.

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: وددت أني كبش فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي.

وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخاري في صحيحه: "باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر".

وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا.

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل.

ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق.

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: "أنشدك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ، يعني في المنافقين؟ فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا".

فسمعت شيخنا ﷺ يقول: ليس مراده لا أبرئ غيرك من النفاق، بل المراد لا أفتح على نفسي هذا الباب، فكل من سألني هل سماني لك رسول الله ﷺ فأزكيه.

قلت: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب "سبقك بها عكاشة" ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن

---

(1) الآية: ٢١ من سورة الجاثية.

عداه من الصحابة، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولى، والله أعلم.

فصل: ضرر الذنوب في القلب كضرر السموم في الأبدان:

* فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر دواء الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته.

فمما ينبغي أن يُعلم أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟.

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدل بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميم أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينيه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علام الماء فوق رؤوس الجبال؟ وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما دمرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟ وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟

ومن الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرت عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟.

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلـى جهـنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟.

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟.

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرًا؟.

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟.

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الـديار، وقتلـوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مـرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبَّروا ما علوا تتبيرًا؟

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات، مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجـور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: **{لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}**[1].

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: "لما فتحت قبرص فرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى".

وقال علي بن الجعد: أنبأنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا البختـري يقـول: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: "لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم"[2].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت: سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: "إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده، فقلت: يا رسول الله، أما فـيهم يومئـذ أناس صالحون؟ قال: بلى، قلت: فكيف يصنع بأولئك؟ قال: يصيبهم ما أصـاب النـاس، ثـم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان"[3].

وفي مراسيل الحسن عن النبي ﷺ : "لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لـم يمالئ قراؤها أمراءها، وما لم يزك صلحاؤها فجّارها، وما لم يُهن خيارها أشرارها، فإذا هم

---

[1] الآية: ١٦٧ من سورة الأعراف.

[2] صححه الألباني معزوًا لأحمد وأبي داود، صحيح الجامع الصغير (٥١٠٧).

[3] أخرجه أحمد (جـ٦ ص٣٠٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٩٣) معزوًا للطبراني وأبي نعيم وأحمد.

فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر".

وفي المسند من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ : "إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه"[٤].

وفيه أيضًا عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قلنا: يا رسول الله، أمن قلة يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تُنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهة الموت"[٥].

وفي المسند من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ : "لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم".

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "يخرج آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين، ويلبسون للناس مسوك الضأن[١] من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل: أبي يغترون؟ وعليَّ يجترئون؟ فبي حلفت، لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران".

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال علي: "يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، مساجدهم يومئذ عامرة وهي خراب من الهدي، علماؤهم شر مَنْ تحت أديم السماء، منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود".

وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: "إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها".

ومن مراسيل الحسن: إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل، وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا الأرحام، لعنهم الله عز وجل عند ذلك، فأصمهم وأعمى أبصارهم.

وفي سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال "كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ ، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها

---

[٤] أخرجه أحمد (جـ٥ ص٢٧٧) وانظر سلسلة الصحيحة (١٥٤) وضعيف الجامع الصغير (١٤٥٢).

[٥] أخرجه أحمد (جـ٥ ص٢٧٨) وصححه الألباني معزوًا إليه وإلى أبي داود عن ثوبان، صحيح الجامع الصغير.

[١] مسوك الضأن: المسك بفتح الميم الجلد، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٦٤٣٦).

إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقــص قــوم فــي المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء فلولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عــدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله عز وجل في كتابــه إلا جعل الله بأسهم بينهم"[٢].

وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : "إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيرًا، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه، كأنه لم يــره علــى خطيئة بالأمس، فلما رأى الله عز وجل منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذي نفس محمــد بيــده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد السفيه، ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم"[١].

وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: "أوحى الله إلى يوشــع بــن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم، وستين ألفًا من شرارهم. قــال: يــا رب، هؤلاء الأشرار، فما بال الخيار؟ قال: لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم".

وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال: "بعث الله عز وجل ملَكين إلى قرية، أن دمِّرها بمن فيها، فوجدا رجلاً قائمًا يصلي في مسجد، فقالا: يا رب، إن فيها عبدك فلانًــا يصلي، فقال الله عزّ وجل: دمراها ودمراه معهم، فإنه ما تمعَّر وجهه فيَّ قط".

وذكر الحميدي عن سفيان بن عيينة قال: حدثني سفيان بن سعيد عن مسعر أن ملكًا أُمر أن يخسف بقرية، فقال: يا رب، إن فيها فلانًا العابد، فأوحى الله عز وجل إليه: أن به فابــدأ، فإنه لم يتمعَّر وجهه فيَّ ساعةً قط".

وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه قال: "لما أصاب داود الخطيئة قال: يا رب اغفر لي، قال: قد غفرت لك، وألزمت عارها بني إسرائيل، قال: يا رب، كيف وأنت الحكم العــدل الذي لا يظلم أحدًا، أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيري؟ فأوحى الله إليه: إنك لمــا عملــت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالإنكار".

---

[٢] أخرجه ابن ماجه وقال في الزوائد: هذا حديث صالح للعمل وحسنه الألباني، انظر سلسلة الصحيحة (١٠٦).

[١] أخرجه أحمد (جــ١ ص٣٩١) والترمذي (جــ٥/ ٣٠٤٧ ، ٣٠٤٨) وقال: "حســن غريــب" وأبــو داود (جــ٤/ ٤٣٣٦ ــ ٤٣٣٧) وابن ماجه (جــ٢/ ٤٠٠١) وقال في الزوائد: في إسناده نكــرة لا يعــرف، والحديث ضعفه الألباني فلم يذكره في صحيح ابن ماجه.

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك: أنه دخل على عائشة، هو ورجل آخر، فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة، فقالت: "إذا استباحوا الزنـا، وشـربوا الخمـور، وضربوا بالمعازف غار الله عز وجل في سمائه، فقال للأرض، تزلزلي بهم، فإن تابوا نزعوا، وإلا هدمها عليهم، قال: يا أم المؤمنين أعذابًا لهم؟ قالت: بلى، موعظة ورحمـة للمـؤمنين، ونكالاً وعذابًا وسخطًا على الكافرين، فقال أنس: ما سمعت حديثًا بعد رسول الله ﷺ أنا أشـد فرحًا به مني بهذا الحديث".

وذكر ابن أبي الدنيا حديثًا مرسلاً أن الأرض تزلزلت علـى عهـد رسـول الله ﷺ ، فوضع يده عليها، ثم قال: اسكني، فإنه لم يأن لك بعد، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: إن ربكـم ليستعتبكم فأعتبوه، ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال: أيها الناس ما كانـت هذه الزلزلة إلا على شيء أحدثتموه، والذي نفسي بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبدًا.

وفي مناقب عمر لابن أبي الدنيا أن الأرض تزلزلت على عهد عمر فضرب يده عليها وقال: ما لك؟ ما لك؟ أما إنها لو كانت القيامة حدثت أخبارها، سمعت رسول الله ﷺ يقـول: "إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق".

وذكر الإمام أحمد عن صفية قالت: زلزلت المدينة على عهد عمر فقال: يأيها الناس، ما هذا؟ وما أسرع ما أحدثتم، لئن عادت لا أساكنكم فيها.

وقال كعب: إنما تزلزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي فترعد فرقًا من الـرب جـل جلاله أن يطلع عليها.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار: أما بعد، فإن هذه الرجف شيء يعاتب الله عز وجل به العباد، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا، فمن كان عنده شيء فليتصدق به، فإن الله عز وجل يقول: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّـهِ فَصَلَّى}**[1]، وقولو كما قال آدم: **{قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُـونَنَّ مِـنَ الْخَاسِرِينَ}**[2]، وقولوا كما قال نوح: **{وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}**[3]، وقولوا كما قال يونس: **{لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}**[4].

---

[1] الآيتان: ١٤ ، ١٥ من سورة الأعلى.

[2] الآية: ٢٣ من سورة الأعراف.

[3] الآية: ٤٧ من سورة هود.

[4] الآية: ٨٧ من سورة الأنبياء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا ضن النـــاس بالـــدينار والـــدرهم وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاءً لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم" رواه أبو داود بإسناد حسن.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال: "لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم".

ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينـــة، وتركوا الجهاد في سبيل الله، وأخذوا أذناب البقر، أنزل الله عليهم من السماء بلاء، فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم".

وقال الحسن: "إن الفتنة والله ما هي إلا عقوبة من الله عز وجل على الناس".

ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل إلى ما يصنع بختنصر فقال: "بما كسبت أيدينا ســـلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا".

وقال بختنصر لدانيال: ما الذي سلطني على قومك؟ قال: عظم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبي ﷺ : "إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الأطفال، وأعقم أرحام النساء، فتنزل النقمة وليس فيهم مرحوم".

وذكر عن مالك بن دينار قال: قرأت في الحكمة: يقول الله عز وجل: "أنـــا الله مالـــك الملوك، قلوب الملوك بيدي؛ فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلـــتهم عليـــه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطفهم عليكم".

ومن مراسيل الحسن: "إذا أراد الله بقوم خيرًا جعل أمرهم إلى حلمائهم، وفيـــأهم عنـــد سمحائهم، وإذا أراد الله بقوم شرًا جعل أمرهم إلى سفهائهم، وفيأهم عند بخلائهم".

وذكر الإمام أحمد وغيره عن قتادة قال: قال موسى: "يا رب، أنت في السماء، ونحـــن في الأرض، فما علامة غضبك من رضاك؟ قال: إذا استعملت عليكم خياركم فهـــو علامـــة رضائي عنكم، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو علامة سخطي عليكم".

وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال: أوحى الله إلى بعـــض الأنبيـــاء: "إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني".

وذكر أيضًا من حديث ابن عمر يرفعه: "والذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتى يبعـــث الله أمراء كذبة، ووزراء فجرة، وأعوانًا خونة، وعرفاء ظلمة، وقراء فسقة، سيماهم ســـيماء الرهبان، وقلوبهم أنتن من الجيف، أهواؤهم مختلفة، فيفتح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهالكون

فيها، والذي نفس محمد بيده لينقضن الإسلام عروة عروة، حتـــى لا يقـــال الله الله، لتـــأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليبعثن الله ع ليكم من لا يرحم صغيركم، ولا يوقر كبيركم".

وفي معجم الطبراني وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رســـول الله ﷺ : "ما طفف قوم كيلاً، ولا بخسوا ميزانًا، إلا منعهم الله عز وجل القطر، وما ظهر في قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت، وما ظهر في قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون، ولا يظهر في قوم القتل -يقتل بعضهم بعضًا- إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا ظهر في قوم عمل قـــوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لـــم ترفـــع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم" ورواه ابن أبي الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشـــعث عـــن عبـــد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به.

وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قال: "دخل عليَّ رســـول الله ﷺ وقـــد حفزه النفس، فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء، فما تكلم حتى توضـــأ، وخـــرج فلصـــقت بالحجرة، فصعد المنبر: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يأيها الناس، إن الله عز وجل يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتستنصروني فلا أنصـــركم، وتسألوني فلا أعطيكم"[١].

وقال العمري الزاهد: إن من غفلتك عن نفسك، وإعراضك عن الله أن ترى ما يســـخط الله فتتجاوزه، ولا تأمر فيه، ولا تنهى عنه، خوفًا ممن لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا.

وقال: من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين، نزعت منـــه الطاعة، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخفّ بحقه.

وذكر الإمام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر الصـــديق: "أيها الناس، إنكم تتلون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}**[٢] وإني ســـمعت رســـول الله ﷺ يقـــول: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه -وفي لفظ: إذا رأوا المنكر فلم يغيروه- أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده"[٣].

---

[١] أخرجه أحمد (جـــ٦ ص١٥٩).

[٢] الآية: ١٠٥ من سورة المائدة.

[٣] أخرجه أحمد (جـــ١ ص٢) أول حديث في مسنده.

وذكر الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "إذا خفيت الخطيئة لم تضر إلا صاحبها، وإذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة".

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب: "توشك القرى أن تخرب وهي عامرة، قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجارها أبرارها وساد القبيلة منافقوها".

وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية عن النبي ﷺ قال: "سيظهر شرار أمّتي على خيارها، حتى يستخفي المؤمن فيهم، كما يستخفي المنافق فينا اليوم".

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال: "يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء، قيل: مم ذاك يا رسول الله؟ قال: مما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره".

وذكر الإمام أحمد من حديث جرير أن النبي ﷺ قال: "ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، وهم أعز وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب".

وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتدلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى، إني كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه".

وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال: "كان حبر من أحبار بني إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء، فيعظهم ويذكرهم بأيام الله، فرأى بعض بنيه يومًا يغمز النساء، فقال: مهلاً يا بني، مهلا يا بني، فسقط من سريره، فانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقُتل بنوه، فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبر فلانًا الحبر أني لا أخرج من صلبك صديقًا أبدًا، ما كان غضبك لي إلا أن قلت: مهلاً يا بني".

وذكر الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا إلى أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها".

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال: "إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر؛ وإن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات".

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "عُذِّبت امرأة في هرة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض".

وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة أنه قيل له: في يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء تركوه، وإذا نهوا عن شيء ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه.

ومن ههنا قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن القُبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت.

وفي الحلية أيضًا عن ابن عباس أنه قال: "يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته: قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال -وأنت على الذنب- أعظم من الذنب، وضحكت وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب، ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ماله؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه فلم يعنه، ولم ينه الظالم على ظلمه، فابتلاه الله".

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعي يقول: سمعت بلال بن سعد يقول: "لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عِظَمِ مَن عصيت".

وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

وقيل: أوحى الله إلى موسى إن أول من مات من خلقي إبليس لأنه عصاني، وإنما أعد من عصاني من الأموات.

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكره عز وجل" **{كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**(١).

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال حذيفة: "إذا أذنب العبد ذنبًا نكت في قلبه نكتة تسوداء يصير قلبه كالشاة الرَّبداء".

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب حدثنا أبي صالح عن ابن شهاب حدثني عبد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "أما بعد يا معشر قريش، فإنكم

---

(١) الآية: ١٤ من سورة المطففين.

أهل لهذا الأمر ما لم تعصوا الله، فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم ما يلحَى هذا القضيب بقضيب في يده، ثم لحى قضيبه فإذا هو أبيض يَصْلد"[٢].

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: الرب عز وجل قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: "إني إذا أُطعت رضيت؛ وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عُصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد".

وذكر أيضًا عن وكيع حدثنا زكريا عن عامر قال: كتبت عائشة إلى معاوية: "أما بعد، فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًا".

وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال: "ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: تدري مم هذا؟ قلت: لا، قال: إن العبد يخلوا بمعاصي الله، فيُلقي الله بُغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر".

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين: أنه لما ركبه الدين اغتم لذلك، فقال: إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة.

قد لا يؤثر الذنب في الحال:

* وههنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فيُنسى، ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك، وأن الأمر كما قال القائل:

إذا لم يغبر حائط في وقوعه

فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق؟ وكم أزالت غبار نعمة؟ وكم جلبت من نقمة؟ وما أ:ثر المغترين بها من العلماء والفضلاء، فضلاً عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين، كما ينقض السم وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء: "اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدّوا أنفسكم من الموتى، واعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، وأن الإثم لا يُنسى".

ونظر بعض العباد إلى صبي، فتأمل محاسنه، فأُتي في منامه، وقيل له: لتجند غِبَها بعد أربعين سنة.

---

[٢] صححه الألباني من حديث أحمد عن ابن مسعود، صحيح الجامع الصغير.

هذا مع أن للذنب نقدًا معجلاً لا يتأخر عنه، قال سليمان التيمي: إن الرجـــل ليصـــيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تشمت بـــي الأعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له، قيل: وكيف ذلك؟ قال يعصي الله ويشمت بـــه فـــي القيامة كل عدو.

وقال ذو النون: مَن خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية.

فصل: من آثار المعاصي:

* وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

* **فمنها:** حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفـــور فطنتـــه، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فـــلا تطفئـــه بظلمـــة المعصية.

وقال الشافعي إلى وكيع رحمه الله:

شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظي

فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال: اعلم بأن العلم فضلٌ

وفضل الله لا يُؤتاهُ عاصي

* **ومنها:** حرمان الرزق، وفي المسند "إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه" وقد تقدم، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر، فما اســـتجلب رزق بمثـــل تـــرك المعاصي.

* **ومنها:** وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام، فلو لم تُترَك الذنوب إلا حذرًا من وقوع تلك الوحشـــى، لكـــان العاقل حريًا بتركها.

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه، فقال له:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب

فدعها إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمرٌ من وحشة الذنب على الذنب، فالله المستعان.

* **ومنها:** الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهر الخير منهم، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، و كلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم، وحرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان، بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشًا من نفسه.

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابتي وامرأتي.

* ومنها: تعسير أموره عليه؛ فلا يتوجه لأمره إلا يجده مغلقًا دونه أو متعسرًا عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرًا؛ فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسرًا، وبالله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنها وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أتى؟

* **ومنها:** ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهمَّ، فتصر ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور،والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج من ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سوادًا فيه يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس: "إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق".

* **ومنها:** أن المعاصي توهن القلب والبدن، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية.

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته في قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما الفاجر فإنه –وإن كان قوي البدن– فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه، وتأمل قوة أبدان فارس والروم، كيف خانتهم، أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟

* **ومنها:** حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصدّ عن طاعة تكون بدله، وتقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة، ثم رابعة، وهلم جرًا، فينقطع

عليه بالذنب طاعات كثيرة، وكل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجلٍ أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها، والله المستعان.

طول العمر وقصره:

* **ومنها:** أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد، فإن البر كما يزيد في العمر، فالفجور يقصر العمر.

وقد اختلف الناس في هذا الموضع.

فقالت طائفة: نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه، وهذا حق، وهو بعض تأثير المعاصي.

وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة، كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابًا كثيرة تكثره وتزيده، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده.

قالوا: ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق والآجال، والسعادة والشقاوة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء الرب عز وجل، فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها لمسبباتها مقتضية لها.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتًا غير حي، كما قال تعالى: {**أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ**}[1].

فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غِبَّ إضاعتها يوم يقول: {**يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**}[2].

فلا يخلو، إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أو لا، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلاً، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

---

(1) الآية: ٢١ من سورة النحل.

(2) الآية: ٢٤ من سورة الفجر.

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه، والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته.

فصل: توالد المعاصي:

* **ومنها:** أن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها، اعملني أيضًا، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك وهلم جرًا، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات.

وكذلك جانب السيئات أيضًا، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة، وملكات ثابتة، فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأحسَّ من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها، فتسكن نفسه وتقر عينه.

ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه، حتى يعاودها، حتى إن كثيرًا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها، ما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ حيث يقول:

وكأس شُربت على لذة

وأخرى تداويت منها بها

وقال آخر:

فكانت دوائي، وهي دائي بعينه

كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزّا، وتحرّضه عليها، وتزعجه من فراشه ومجلسه إليها.

ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين، فتؤزه إليها أزّا.

فالأول قوى جند الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه، وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا له.

فصل: المعصية تضعف إرادة الخير:

* **ومنها** -وهو من أخوفها على العبد- أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة الكلية، فلو مات نصفه تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مصر عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنها، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

فصل: إلف المعصية:

* **ومنها:** أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه.

وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان، عملت كذا وكذا.

وهذا الضرب من الناس لا يعافون، ويسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النبي ﷺ: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يستر الله العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول: يا فلان عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فهتك نفسه، وقد بات يستره ربه"[1].

المعاصي مواريث:

* **ومنها:** أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عز وجل.

فاللوطية: ميراث عن قوم لوط، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالتناقص ميراث قوم شعيب، والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون، والتكبر والتجبر ميراث قوم هود.

فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الأمم، وهم أعداء الله.

وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: "لا يدخلوا مداخل أعدائي، ولا يلبسوا ملابس أعدائي، ولا يركبوا مراكب أعدائي، ولا يطعموا مطاعم أعدائي، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي".

---

(1) حديث صحيح أخرجه البخاري في (جـ١٠/ ٦٠٦٩ - فتح الباري) ومسلم (جـ٤/ الزهد/ ٥٢).

وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: "بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم"(٢).

فصل: هوان العاصي على ربه:

* **ومنها:** أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه.

قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: **{وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ}**(٣).

وإنْ عظّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفًا من شرهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

هوان المعاصي على المصرِّين:

* **ومنها:** أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه: وذلك علامة الهلاك، فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله.

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا فطار".

فصل: شؤوم الذنوب:

* **ومنها:** أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة: إن الحباري لتموت في وكرها من ظلم الظالم.

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب، يقولون: منعنا القطر بذنوب بني آدم، فلا يكفي عقاب ذنبه، حتى يلعنه من لا ذنب له.

---

(٢) أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير.

(٣) الآية: ١٨ من سورة الحج.

فصل: المعصية تورث الذل:

*ومنها: أن المعصية تورث الذل ولا بد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى.

قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً}[1] أي فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك.

وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها؟

فصل: المعاصي تفسد العقل:

* **ومنها:** أن المعاصي تفسد العقل، فإن للعقل نورًا، والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص.

وقال بعض السلف: ما عصى الله أحد حتى يغيث عقله، وهذا ظاهر، فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى، أو تحت قهره، وهو مطلع عليه، وفي داره وعلى بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه! وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة لذلك كله، والاستخفاف به ذو عقل سليم؟

فصل: الذنوب تطبع على القلب:

* **ومنها:** أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف في قوله تعالى: {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[1] قال: هو الذنب بعد الذنب.

---

[1] الآية: ١٠ من سورة فاطر.

[1] الآية: ١٤ من سورة المطففين.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب، حتى يعمى القلب.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلاً وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انعكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد.

فصل: الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ:

* **ومنها:** أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ ، فإنه لعن على معاصٍ والتي غيرها أكبر منها، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة.

فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة، ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده، ولعن المحلل والمحلل له، ولعن السارق، ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها، وبائعها ومشتريها، وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه، ولعن من غيَّر منار الأرض، وهي أعلمها وحدودها، ولعن من لعن والديه، ولعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا يرميه بسهم، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، ولعن من ذبح لغير الله، ولعن من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا، ولعن المصورين، ولعن من عمل عمل قوم لوط، ولعن من سب أباه وأمه، ولعن من كمه أعمى عن الطريق، ولعن من أتى بهيمة، ولعن من وسم دابة في وجهها، ولعن من ضار مسلمًا أو مكر به، ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج، ولعن من أفسد امرأة على زوجها، أو مملوكًا على سيده، ولعن من أتى امرأةً في دبرها، وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح، ولعن من انتسب إلى غير أبيه، وأخبر أن من أشاع إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، ولعن من سب الصحابة.

من لعنه الله:

* وقد لعن الله في كتابه من أفسد في الأرض وقطع رحمه، وآذاه وآذى رسول الله ﷺ.

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى.

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة.

ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدى من سبيل المسلمين.

ولعن رسول الله ﷺ الرجل الذي يلبس لبسة المرأة، والمرأة التي تلبس لبسة الرجل.

ولعن الراشي والمرتشي والرائش -وهو الواسطة في الرشوة-.

ولعن على أشياء أخر غير هذه.

فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

فصل: حرمان دعوة رسول الله ﷺ:

* **ومنها:** حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى: **{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}**[(١)].

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة، إذ يتصف بصفات المدعو له بها، والله المستعان.

فصل: ما رآه الرسول ﷺ من عقوبات العصاة:

* **ومن عقوبات المعاصي:** ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال: "كان النبي ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟ فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة: إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما انبعثا بي وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر ههنا فيقع الحجر، فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصبح رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى، قال: قلت لهما: سبحان الله ما هذا؟ قال لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه ويشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصب ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثلما فعل في المرة الأولى، قال: قلت: سبحان الله! ما هذان؟ فقالا لي: انطلق انطلق.

---

(١) الآيات: ٧ – ٩ من سورة غافر.

فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، فإذا فيه لغط وأصوات، قال فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك ضَوْضَوُا فقال: قلت لهم: ما هؤلاء، قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا، فأتينا على نهر أحمر مثل الدم، فإذا في النهر رجل سابح يسبح وإذ على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما شاء الله أن يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرًا، فينطلق فيسبح، ثم يرجع إليه كلما رجع إليه، فيفغر له فاه فيلقفه حجرًا، قلت لهما: ما هذان؟ قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا، فأتينا على رجل كريه المرآة، أو كأكره ما أنت راءٍ رجلاً مرأى، وإذا هو عنده نار يحثها ويسعى حولها، قال: قلت لهما: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا حتى أتينا على روضة معتمة فيها من كل نَوْر الربيع، وإذا بين ظهراني الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل أكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا، فأتينا إلى دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم منها، ولا أحسن، قالا لي: ارق فيها، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب، ولبن فضة، قال: فأتينا باب المدينة، فاستفتحنا، ففتح لنا، فدخلناها فلقينا رجال، شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر منهم كأقبح ما أنت راء، قالا: قال لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا، قد ذهب ذلك السوء عنهم، قال: قالا لي: هذه جنة عدن، وها ذاك منزلك.

قال: فسما بصري صعدًا، فإذا قصر مثل الربابة البيضاء، قال: قالا لي: هذا منزلك، قلت لهما: بارك الله فيكما، فذراني أدخله، قالا: أما الآن فلا، وأنت داخله.

قلت لهما: فإني رأيت منذ الليلة عجبًا، فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك.

أما الرجل الأول الذي أتيت يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو إلى بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وأما الرجاء والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة، فإنه يأكل الربا.

وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحثها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنم.

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم.

وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة – وفي رواية البرقاني: ولد على الفطرة– فقال بعض المسلمين يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ : وأولاد المشركين.

وأما القوم الذين كانوا شطرًا منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا تجاوز الله عنهم.

فصل: الذنوب تحدث الفساد في الأرض:

* **ومن آثار الذنوب والمعاصي**: أنها تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه والهواء، والزرع والثمار، والمساكن، قال تعالى: {**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**}[1].

قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد فيحبس الله بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ: {**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**}.

ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر.

وقال عكرمة: ظهر الفساد في البر والبحر، أما إني لا أقول لكم: بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء.

وقال قتادة: أما البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرى والريف.

قلت: وقد سمّى الله تعالى الماء العذب بحرًا فقال: {**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ**}[2].

وليس في العالم بحر حلو واقف، وإنما هي الأنهار الجارية، والبحر المالح هو السكن، فسمى القرى التي عليها المياه الجارية باسم تلك المياه.

وقال ابن زيد: {**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**} قال: الذنوب.

---

[1] الآية: ٤١ من سورة الروم.

[2] الآية: ١٢ من سورة فاطر.

قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله: {**لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا**} لام العاقبة والتعليل، وعلى الأول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنبًا أحدث الله لهم عقوبة، كما قال بعض السلف: كلما أحدثتم ذنبًا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة.

والظاهر -والله أعلم- أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: {**لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا**} فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة.

المعاصي سبب الخسف والزلازل:

* ومن تأثير المعاصي في الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل، ويمحق بركتها، وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن يعلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح، لتأثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات.

وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: "وجد في خزائن بني أمية حبة حنطة بقدر نواة التمرة، وهي صرة مكتوب عليها: هذا كان ينبت في زمن العدل" وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب.

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنما حدثت من قرب.

تأثير الذنوب في الصور:

* وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق، فقد روى الترمذي في جامعه عنه ﷺ أنه قال: "خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن"[(١)].

فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلَمة والفجرة والخونة، يخرج عبدًا من عباده من أهل بيت نبيه ﷺ فيملأ الأرض قسطًا كما ملئت جورًا، ويقتل المسيح اليهود والنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله وتخرج الأرض بركتها، وتعود كما كانت، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير،

---

(١) هو بعض حديث في الصحيحين وأحمد.

وأن اللقحة الواحدة لتكفي الفئام من الناس، وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر، ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات، كما أن هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم، فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولاً وآخرًا وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره، فإن لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره، وعمله، وقوله، ورزقه، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت، ونزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته، وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة.

فصل: الذنوب تطفئ الغيرة:

* **ومن عقوبات الذنوب:** أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلاهم همة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس، ولهذا كان النبي ﷺ أغير الخلق على الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني"[1].

وفي الصحيح أيضًا أنه قال في خطبة الكسوف: "يا أمة محمد، ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمَته"[2].

* وفي الصحيح أيضًا عنه أنه قال: "لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه"[2].

فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان، والله سبحانه -مع شدة غيرته- يحب أن يعتذر

---

[1] هو في البخاري ومسلم وعند الدارمي.

[2] أخرجه مسلم (جـ٢ - الكسوف/ ١).

[2] أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي.

إليه عبده، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وأنه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذارًا وإنذارًا، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال.

فإن كثيرًا ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير، ويرى عذرًا ما ليس بعذر، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: "إن من الغيرة ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله، فالتي يبغضها الله الغيرة في غير الريبة..." وذكر الحديث.

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر، فيغار في محل الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقًا.

* ولما جمع الله سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه، فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها، وأدخلته على ربه، وأدنته منه وقرّبته من رحمته، وصيّرته محبوبًا، فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، قوي يحب المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حيي يحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، وتر يحب أهل الوتر.

ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي إلا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة، فإن الخطرة تنقلب وسوسة، والوسوسة تصير إرادة والإرادة تقوى فتصير عزيمة، ثم تصير فعلاً، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة، وحينئذ يتعذر الخروج منها كما يتعذر الخروج من صفاته القائمة به.

* والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًا حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويحثه عليه، ويسعى له في تحصيله، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة حرام عليه، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه له، فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة.

وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له؛ فالغيرة تحيي القلب فتحيا له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب فتموت له الجوارح؛ فلا يبقى عندها دفع ألبتة.

ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً ولم يجد دافعًا، فتمكن فكان الهلاك، ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وولده، فإذا كسرت طمع فيه عدوه.

فصل: المعاصي تذهب الحياء:

* **ومن عقوباتها:** ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "الحياء خير كله"[١].

وقال: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت"[٢] وفيه تفسيران:

أحدهما: أنه على التهديد والوعيد، والمعنى من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح، إذ الحامل على تركها الحياء، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها، وهذا تفسير أبي عبيدة.

والثاني: أن الفعل إذا لم تستح منه من الله فافعله، وإنما الذي ينبغي تركه هو ما يستحى منه من الله، وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هانئ.

فعلى الأول يكون تهديدًا، كقوله: {**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**}[٣]، وعلى الثاني يكون إذنًا وإباحة.

فإن قيل: فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين؟

قلت: لا، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجد اعتبار الأخر.

والمقصود: أن الذنوب تضعف الحياء من العبد، حتى ربما انسلخ منه بالكلية، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع.

وإذا رأى إبليس طلعة وجهه

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود عن عمران بن حصين.

(٢) أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن مسعود.

(٣) الآية: ٤٠ من سورة فصلت.

حيا وقال: فديت من لا يفلح

والحياء مشتق من الحياة، والغيث يسمّى حيًا -بالقصر- لأن به حياة الأرض والنبات والدواب، وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم، من الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثًا، ومن استحيى من الله عند معصيته استحيى الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستح من معصيته لم يستح من عقوبته.

فصل: المعاصي تضعف في القلب تعظيم الرب:

* **ومن عقوبات الذنب:** أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال: إنما يحملني على المعاصي حسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النفس؛ فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

* **ومن بعض عقوبة هذا:** أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم ويستخفون به، كما هان عليه أمره واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس، وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع ألا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم فطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره، ولهذا قال الله تعلى في آية سجود المخلوقات له: **{وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ}**[(١)].

فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله، فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهين من أكرمه الله؟.

---

(١) الآية: ١٨ من سورة الحج.

فصل: المعاصي تنسي الله:

* **ومن عقوباتها:** أنها تستدعي نسياه الله لعبده، وتركه وتخليتــه بينــه وبــين نفســه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة، قال الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَد وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّــهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**}[٢].

فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنين بما نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب مــن ترك التقوى بأن أنساه نفسه، أي أنساه مصالحها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نســيه مــن عظمتــه وخوفه، والقيام بأمره، فترى العاصي مهملاً لمصالح نفسه مضيعًا لها، قد أغفــل قلبــه عــن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطًا، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فــرط فــي سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة، إنما سحابة صيف أو خيال طيف، كما قيل:

أحلام نوم، أو كظل زائلٍ

إنَّ اللبيب بمثلها لا يُخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعته حظها ونصــيبها مــن الله، وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لا غنى له عنه، ولا عــوض لــه منــه، واستبدل به عنه كل الغنى أو من كل العوض:

من كل شيء إذا ضيعته عوض

وما من الله إن ضيعته عوض

فالله سبحانه وتعالى يعوض عن كل ما سواه ولا يعوض منه شيء، ويغني عــن كــل شيء ولا يغني عنه شيء، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، فكيف يستغني العبد عن طاعة مَن هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسى ذكــره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلــم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه.

فصل: المعاصي تخرج صاحبها من دائرة الإحسان:

* **ومن عقوباتها:** أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه من ثواب المحسنين، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يــراه لــم يكــن ذلــك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه

---

[٢] الآيتان: ١٨ ، ١٩ من سورة الحشر.

وبين إرادة المعصية، فضلاً عن مواقعتها، فإذا خرج من دائرة الإحسان فإن صحبة رفقته الخاصة، وعيشهم الهنيء، ونعيمهم التام، فإن أراد الله به خيرًا أقره في دائرة عموم المؤمنين، فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبي ﷺ : "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبة ذات شرف يرفع إليه فيها الناس أبصارهم حتى ينتهبها وهو مؤمن"[١] فإياكم إياكم، والتوبة معرضة بعد.

فصل: العاصي يفوته ثواب المؤمنين:

* ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وفاته كل خير رتبه الله في كتابه عن الإيمان، وهو نحو مائة خصلة، كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها.

فمنها: الأجر العظيم: **{وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً}**[١].

* **ومنها:** الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة: **{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}**[٢].

* **ومنها:** استغفار الملائكة حملة العرش لهم: **{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}**[٣].

* **ومنها:** موالاة الله لهم، ولا يذل من مولاه الله، قال الله تعالى: **{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا}**[٤].

* **ومنها:** أمره ملائكته بتثبيتهم: **{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا}**[٥].

* **ومنها:** أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم.

* **ومنها:** العزة: **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ}**[٦].

* **ومنها:** معية الله لأهل الإيمان: **{وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}**[٧].

* **ومنها:** الرفعة في الدنيا وفي الآخرة: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}**[٨].

* **ومنها:** إعطاؤهم كفلين من رحمته وإعطاؤهم نورًا يمشون به ومغفرة ذنوبهم.

---

[١] صحيح أخرجه الشيخان وأحمد والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة.

[١] الآية: ١٤٦ من سورة النساء.

[٢] الآية: ٣٨ من سورة الحج.

[٣] الآية: ٧ من سورة غافر.

[٤] الآية: ٢٥٧ من سورة البقرة.

[٥] الآية: ١٢ من سورة الأنفال.

[٦] الآية: ٨ من سورة المنافقون.

[٧] الآية: ١٩ من سورة الأنفال.

[٨] الآية: ١١ من سورة المجادلة.

[٩] الآية: ٤٨ من سورة الأنعام.

* **ومنها:** الود الذي يجعله الله سبحانه لهم، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين.

* **ومنها:** أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف: **{فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}**(٩).

* **ومنها:** أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

* **ومنها:** أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء: **{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}**[١].

والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان، وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان، فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئًا يخرجه من دائرة الإيمان، ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين؟ فإن استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن ههنا اشتد خوف السلف، كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر.

فصل: المعاصي تضعف القلب:

* **ومن عقوباتها:** أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة؛ هذا إن لم ترده عن وجهته إلى وراءه، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر؛ وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه، والله المستعان.

فالذنب إما أن يميت القلب، أو يمرض مرضًا مخوفًا، أو يضعف قوته ولا بد حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ وهي "الهم، والحزن، والعجز، والكسل، والجبن، والبخل، وضَلَع الدين، وغلبة الرجال" وكل اثنين منها قرينان.

فالهم والحزن قرينان، فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم، وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن.

والعجز والكسل قرينان، فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح، إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

---

[١] الآية: ٤٤ من سورة فصلت.

والجبن والبخل قرينان، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان، فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال.

والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة "لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء" ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله، وتحول عاقبته إلى نقمته، وتجلب جميع سخطه.

فصل: المعاصي تزيل النعم:

* **ومن عقوبات الذنوب:** أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ : "ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة".

وقد قال تعالى: {**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**}(١).

وقال تعالى: {**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**}(٢).

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير غُير عليه، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

فإن غيَّر المعصية بالطاعة غيَّر الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز.

وقال تعالى: {**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ**}(٣).

وفي بعض الآثار الإلهية، عن الرب تبارك وتعالى أنه قال: "وعزتي وجلالي، لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب، ثم ينتقل عنه إلى ما أكره، إلا انتقلت له مما يحب إلى ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب، إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب".

ولقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمةٍ فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعم

---

(١) الآية: ٣٠ من سورة الشورى.

(٢) الآية: ٥٣ من سورة الأنفال.

(٣) الآية: ١١ من سورة الرعد.

وحطهـــا بطاعـــة رب العبـــاد فـــرب العبـــاد ســـريع الـــنقم
وإيـــاك والظلـــم مهمـــا استطعـــ ــت فظلْم العبـــاد شـــديد الـــوخم
وســـافر بقلبـــك بـــين الـــورى لتبصـــر آثـــار مـــن قـــد ظلـــم
فتلـــــك مســـــاكنهم بعـــــدهم شـــــهود علـــــيهم، ولا تـــــتهم
وما كـــان شـــيء علـــيهم أضـــ ــرّ من الظلم وهو الذي قد قصـــم
فكـــم تركـــوا مـــن جنـــان ومـــن قصـــور، وأخـــرى عليهـــا أطـــم
صـــلوا بـــالجحيم وفـــات النعيـــ ــم وكـــان الـــذي نـــالهم كـــالحلم

فصل: المعاصي تلقي الرعب والخوف في القلوب:

* **ومن عقوباتها:** ما يلقيه الله سبحانه وتعالى من الرعب والخوف في قلب العاصـــي، فلا تراه إلا خائفًا مرعوبًا.

فإن الطاعة حصن الله الأعظم، من دخله كان من الآمنين من عقوبة الـــدنيا والآخـــرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقـــه أمانًا، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيرًا بالعطب، يحسب أن كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصدًا إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

بذا قضى الله بين الناس مذ خلقوا
أن المخاوف والإجرام في قرن

المعاصي توقع في الوحشة:

* **ومن عقوباتها:** أنها توقع في الوحشة العظيمة فـــي القلـــب فيجـــد المـــذنب نفســـه مستوحشًا، وقد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبين الخلق وبين نفسه، وكلما كثـــرة الـــذنوب اشتدت الوحشة، وأمرّ العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيب العيش عيش المستأنســـين، فلو نظر العاقل ووازن لذة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة، لعلم سوء حاله، وعظيم غبنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف والضرر الداعي له كما قيل:

فإن كنت قد أوحشتكَ الذنو
ب فدعها إذا شئت واستأنسِ

* **وسر المسألة:** أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، فكلما اشتد القرب قوي الأنس، والمعصية توجب البعد عن الرب، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة.

ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابسًا له قريبًا منه، ويجد أنسًا وقربًا بينه وبين من يحب، وإن كان بعيدًا عنه.

والوحشة سببها الحجاب، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر، ولا تجد أحدًا ملابسًا شيئًا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه؛ فتعلوا الوحشة وجهه وقلبه، فيستوحش ويُسْتَوْحَشُ منه.

فصل: المعاصي تمرض القلوب:

* **ومن عقوباتها:** أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه؛ فلا يزال مريضًا معلولاً لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها، ولا دواء لها إلا تركها.

وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تُعطى مُناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد.

ولا تحسب أن قوله تعالى: {**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**}[1] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك -أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار- فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئًا غير الله عُذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

---

(١) الآيتان: ١٣ ، ١٤ من سورة الانفطار.

* **وأما في البرزخ:** فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وأمل الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهم والغم والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم ومستمر، حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمرّ، فأين هذا من نعيم يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبه، وطمأنينةً بذكره؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه.

ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها.

ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

ويقول الآخر: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسَل المقومين.

فيا عجبًا من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوى، والسفير الذي جرى على يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ ، وقد بعتها بغاية الهوان، كما قال القائل:

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه

فمن ذا له من بعد ذلك يكرم

{وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}[1].

فصل: المعاصي تعمي البصيرة:

* **ومن عقوباتها:** أنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية.

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل: إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات

[1] الآية: ١٨ من سورة الحج.

مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب، ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجه منها سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلأ القبر ظلمة، كما قال النبي ﷺ : "إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن الله منورها بصلاتي عليهم"[٢].

فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علوّا ظاهرًا يراه كل أحد، حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة، فيالها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنكد المتعب في زمن إنما هو ساعة من حلم؟ فالله المستعان.

فصل: المعاصي تصغر النفوس:

* **ومن عقوباتها:** أنها تصغر النفس وتقمعها، وتدسيها، وتحقرها، حتى تكون أصغر شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها، قال تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}**[١].

والمعنى، قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله.

وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: **{أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ}**[٢].

فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، وقد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو، فما أصغر النفوس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.

فصل: العاصي في سجن الشيطان:

* **ومن عقوباتها:** أن العاصي دائمًا في أسر شيطانه وسجن شهواته، وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسره أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من

---

[٢] أخرجه أحمد عن أنس ومسلم عن أبي هريرة.

[١] الآيتان: ٩ ، ١٠ من سورة الشمس.

[٢] الآية: ٥٩ من سورة النحل.

سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟

وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده، ومثل القلب مثل الطائر، كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل احتوشته الآفات.

وفي الحديث: "الشيطان ذئب الإنسان"[٣].

وكما أن الشاة التي لا حافظ لها هي بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترس ولا بد، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى، فهي وقاية وجُنة حصينة بينه وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب إلى الهلاك، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم، وهي أبعد من الراعي.

* **وأصل هذا كله:** أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات.

والبعد من الله مراتب، بعضها أشد من بعض؛ فالغفلة تبعد القلب عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله.

فصل: المعاصي تسقط الكرامة:

* **ومن عقوباتها:** سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط عن عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيش: خامل الذكر، ساقط القدر، رَزِيَّ الحال، لا حرمة له ولا فرح له ولا سرور، فإن خمول الذِكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهم وحزن، ولا سرور معه ولا فرح، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة؟

ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين ذكره، ويعلي قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله بما ليس لغيرهم، كما قال تعالى: {**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي**

---

[٣] ضعفه الألباني من رواية أحمد في مسنده عن معاذ وله تتمة، انظر ضعيف الجامع الصغير (١٤٧٧).

الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ}[(١)] أي خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار.

وهو لسانا لصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال: {**وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ**}[(٢)].

وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه: {**وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً**}[(١)].

وقال لنبيه ﷺ : {**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**}[(٢)].

فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم، وكل من خالفهم فإنه بعيد عن ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

فصل: المعصية مجلبة للذم:

* **ومن عقوباتها:** أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن، والبر، والمحسن، والمتقي، والمطيع، والمنيب، والولي، والورع، والصالح، والعابد، والخائف، والأوَّاب، والطيب، والمرضيّ، ونحوها.

وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والخبيث، والمسخوط، والزاني، والسارق، والقاتل، والكاذب، والخائن، واللواطي، وقاطع الرحم، والغادر، وأمثالها.

فهذه أسماء الفسوق {**بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ**}[(٣)] الذي يوجب غضب الديّان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان.

وتلك أسماء توجب رضاء الرحمن، ودخول الجنان، وتوجب شرف المسمى بها على سائر نوع الإنسان، فلو لم يكن عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناهٍ عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل آمرٌ بها، ولكن لا مانع لما أعطي، ولا معطي لما منع، ولا مقرّب لما باعد، ولا مبعد لمن قرّب {**وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**}[(٤)].

---

(١) الآيتان: ٤٥، ٤٦ من سورة ص.

(٢) الآية: ٨٤ من سورة الشعراء.

(١) الآية: ٥٠ من سورة مريم.

(٢) الآية: ٤ من سورة الشرح.

(٣) الآية: ١١ من سورة الحجرات.

(٤) الآية: ١٨ من سورة الحج.

فصل: المعصية تؤثر في العقل:

* **ومن عقوباتها:** أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل، فلا تجد عاقليْن أحدهما مطيع لله والآخر عاص، إلا عقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصحّ، ورأيه أسدّ، والصواب قرينه.

ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي العقول والألباب كقوله: **{وَاتَّقُون يَا أُولِي الأَلْبَابِ}**[1]، وقوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**[2]، **{وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ}**[3]، ونظائر ذلك كثيرة.

وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصي مَنْ هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه، ويستعين بنعمه على مساخطه، ويستدعي كل وقت غضبه عليه، ولعنته له، وإبعاده من قربه، وطرده من بابه، وإعراضه عنه، وخذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وسقوطه من عينه، وحرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه، والفوز بجواره، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر، ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن، على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم؟ بل هو سعادة الدنيا والآخرة، ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد تكون المجانين أحسن حالاً منه وأسلم عاقبة، فهذا من هذا الوجه.

وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيش، فلولا الاشتراك في هذا النقصان، لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا، ولكن الجائحة عامة، والجنون فنون.

ويا عجبًا لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو في رضاء مَن النعيم كله في رضاه، والألم والعذاب كله في سخطه وغضبه، ففي رضاه قرة العيون وسرور النفوس، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، وطيب الحياة ولذة العيش وأطيب النعيم، وما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يفِ به، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرضَ بالدنيا وما فيه عوضًا منه، ومع هذا فهو يتنعّم بنصيبٍ من الدنيا أعظم من تنعُّم المترفين فيها، ولا يشوب تنعّمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعّم

---

[1] الآية: ١٩٧ من سورة البقرة.

[2] الآية: ١٠٠ من سورة المائدة.

[3] الآية: ٢٦٩ من سورة البقرة.

المترفين من الهموم والغموم والأحزان المعارضات، بل قد حصل على النعيمين، وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال تعالى: **{إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ}**[٤].

فلا إله إلا الله ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر، والمسك بالرجيع، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرًا.

فصل: المعاصي توجب القطيعة بين العبد والرب:

* **ومن أعظم عقوباتها:** أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر، فأي فلاح، وأي رجاء، وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى عنه طرفة عين، ولا بدل له منه، ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له، فتولاه عدوه وتخلى عنه وليه؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب.

قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان، فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان؛ وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان، وقد قال تعالى: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً}**[١].

يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضّلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له، تكريمًا له وتشريفًا، فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي وهم أعدى عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موالٍ له، فهذا مُحال، هذا لو لم يكن عدو الملك عدوّا لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه.

---

[٤] الآية: ١٠٤ من سورة النساء.

[١] الآية: ٥٠ من سورة الكهف.

ونبّه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: {**وَهُمْ لَكُمْ عَدُو**}.

كما نبه على قبحها بقول: {**فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه**}.

فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا، كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلاً.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أنــي عاديــت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة.

فصل: المعاصي تمحق البركة:

* **ومن عقوباتها:** أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة.

وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينــه ودنيــاه ممــن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: {**وَلَوْ أَنَّ أَهْــلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**}(١).

وقال تعالى: {**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيه**}(٢).

وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

وفي الحديث: "إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإنه لا يُنال ما عند الله إلا بطاعته، وإن الله جعلا لروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهمَّ والحزن في الشك والسخط"(٣).

وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد: "أنا الله، إذا رضيت باركــت ولــيس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد".

وليست سعة الرزق والعمل بكثرته، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق بالبركة والعمر فيه.

---

(١) الآية: ٩٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآيتان: ١٦ ، ١٧ من سورة الجن.

(٣) صحيح أخرجه أبو نعيم في "الحلية" عن أبي أمامة، صحيح الجامع الصغير.

نفث: نفخ. الرُّوع: هو النفس والعقل والقلب.

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره، والأنس بقربه، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله، ولو تعوض عنها بما تعوض مما في الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضًا عن هذه الحياة، فمن كل شيء يفوت العبد عوض، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء ألبتة.

وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغني بالذات، والعاجز بالذات عن القادر بالذات، والميت عن الحي الذي لا يموت، والمخلوق عن الخالق، ومَن لا وجود له ولا شيء له من ذاته ألبتة عمن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوازم ذاته؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض.

وإنما كانت معصية الله سببًا لمحق بركة الرزق والأجل لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها، فسلطانه عليهم، وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوة، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع لما في مقارنة اسم الله من البركة؛ وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض له، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذي يبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه مبارك، فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه، وهي الشام أرض البركة، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه، فلا مبارك إلا هو وحده، ولا مبارك إلا ما نسب إليه، أعني إلى ألوهيته ومحبته ورضاه، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه، ولا خير فيه، وكل ما كان قريبًا من ذلك ففيه من البركة على حسب قربه منه.

وضد البركة اللعنة؛ فأرض لعنها الله أو شخص لعنه الله أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبتة.

وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه، فكل ما كان جهته فله من لعنة الله بقدر قربه واتصاله به، فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل، وكل وقت عصيت الله فيه، أو مال عُصي الله به، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ليس له، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به.

ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها، كما أن منهم من يملك القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها، وهكذا الجاه والعلم.

وفي الترمذي عنه ﷺ : "الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعـالم أو متعلم"[1].

وفي أثر آخر: "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله" فهذا هو الذي فيـه البركـة خاصة، والله المستعان.

فصل: المعصية تجعل صاحبها من السفلة:

* **ومن عقوباتها:** أنها تجعل صاحبها من السفل بعد أن كان مهيئًا لأن يكون من العلية، فإن الله خلق خلقه قسمين: علية، وسفلة، وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سـافلين مسـتقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسـفلين فـي الـدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه، وأهل معصيته أهونخلقه عليه، وجعل العـزة لهؤلاء، والذلة والصغار لهؤلاء، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو عـن النبي ﷺ أنه قال: "بعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحـي، وجعـل الذل والصغار على من خالف أمري"[1].

فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتـى يكـون مـن الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلين.

وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه، والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله، فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن بالعكس.

ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم، وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيدًا أبعد مما بين المشرق والمغرب، ومما بين السماء والأرض، فلا يفي صعوده ألف درجـة بهـذا النـزول الواحد، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقي لهـا بالاً يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب"[2].

فأي صعود يوازي هذه النزلة؟ والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكـون نزوله إلى غفلة، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى درجته، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته.

---

[1] أخرجه الترمذي (جـ٤/ ٢٣٢٢) وابن ماجه (جـ٢/ ٤١١٢) والدارمي (جـ١/ ٣٢٢) وصححه الألباني كما في الجامع الصغير.

[1] صححه الألباني كما في الجامع الصغير معزوًا لأحمد وأبي يعلى والطبراني عنه.

[2] حديث صحيح رواه أحمد في مسنده والشيخان في صحيحيهما.

ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوي به الاستعانة على الطاعة، فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنها، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان، وقد يكون أضعف همة، وقد تعود همته كما كانت.

ومنهم من يكون نزوله إلى معصية؛ إما صغيرة أو كبيرة، فهذا قد يحتاج في عوده إلى توبة نصوح؛ وإنابة صادقة.

* واختلف الناس: هل يعود بعد التوبة إلى درجته التي كان فيها، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب، وتجعل وجوده كعدمه، فكأنه لم يكن، أو لا يعود، بناء على أن التوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة، وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها؟

قالوا: وتقرير ذلك أنه كان مستعدّا باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر، وارتقاء تحمله أعماله السالفة لمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح تحمله أعماله، فإذا استأنف العمل استأنف صعودًا من نزول وكان قبل ذلك صاعدًا من أسفل إلى أعلى، وبينهما بون عظيم.

قالوا: ومثل ذلك رجلين يرتقيان في سلمين لا نهاية لهما، وهما سواء، فنزل أحدهما إلى أسفل، ولو درجة واحدة، ثم استأنف الصعود، فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الطائفتين حكمًا مقبولاً فقال:

التحقيق أن من التائبين من يعود إلى أرفع من درجته، ومنهم من يعود إلى مثل درجته، ومنهم من لا يصل إلى درجته.

قلت: وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة، والحذر والخوف من الله، والبكاء من خشية الله، فقد تقوى هذه الأمور، حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيرًا من قبل الخطيئة، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة، فإنها نفت عنه داء العجب، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله، ووضعت خد ضراعته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه، وعرّفته قدره، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له، وإلى عفوه عنه ومغفرته له، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة، وكسرت أنفه أن يشمخ أو يتكبر بها، أو يرى نفسه بها خيرًا من غيره، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين، ناكس الرأس بين يدي ربه، مستحييًا منه خائفًا وجلاً، محتقرًا لطاعته، مستعظمًا لمعصيته، قد عرف نفسه بالنقص والذم، وربه متفرد بالكمال والحمد والوفاء، كما قيل:

استأثر الله بالوفاء وبالـــ

ـــحمد، وولَّى الملامة الرجلا

فأي نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه، ورأى نفسه دونها، ولم يرها أهلاً.

وأي نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها، ورأى مولاه قد أحسن إليه إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره، ولا أدنى جزء منه.

فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات، فضلاً عن هذا العبد الضعيف العاجز، فإن الذنب وإن صغر، فإن مقابلة العظيم الذي لا شيء أعظم منه، الكبير الذي لا شيء أكبر منه، الجليل الذي لا أجل منه ولا أجمل، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجلها، من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السموات والأرض، وملك السموات والأرض من معاصي العباد، قال الله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}**(١).

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما "الحليم الغفور" كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض؟

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه: **{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً}**(٢).

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه، وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب واحد ارتكبه، وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقى كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجي ... درج الجنان لدى النعيم الخالد

ولقد علمنا أخرج الأبوين من ... ملكوته الأعلى بذنبٍ واحد

والمقصود: أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة، وقد تضعف الخطيئة همته، وتوهن عزمه، وتمرض قلبه، فلا يقوى دواء التوبة على إعادته إلى الصحة الأولى، فلا يعود إلى درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود إلى مثل عمله، فيعود إلى درجته.

---

(١) الآية: ٤١ من سورة فاطر.

(٢) الآية: ٩٠ من سورة مريم.

هذا كله إذا كان نزوله إلى معصية، فإن كان نزوله إلى أمر يقدح في أصل إيمانه، مثل الشكوك والريب والنفاق، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه.

فصل: المعاصي تجرئ على الإنسان أعداءه:

* **ومن عقوباتها:** أنها تجرئ على العبد من لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات: فتجرئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين، وإنسائه ما به مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه، فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤُزُّه في معصية الله أزّا.

وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره، ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم.

قال بعض السلف: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي.

وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله، وتجترئ عليه نفسه فتتأسد عليه وتستصعب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه، شاء أم أبى.

وذلك أن الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذي مَن دخله كان من الآمنين.

فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه، وليس له شيء يرد عنه، فإن ذكر الله وطاعته، والصدقة وإرشاد الجاهل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر -وقاية ترد على العبد، بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه، فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك، فلا بد للعبد من شيء يرد عنه، فإن موجب السيئات والحسنات تتدافع، ويكون الحكم للغالب كما تقدم، وكلما قوّى جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، والإيمان قول وعمل، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع، والله المستعان.

فصل: المعاصي تضعف العبد أمام نفسه:

* **ومن عقوباتها:** أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كان كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل.

وأقواهم وأكيسهم من قوي على نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره.

وفي ذلك تتفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم، فأعرفهم من كان عارفًا بأسباب السعادة والشقاوة، وأرشدهم من آثر هذه على هذه، كما أن أسفههم من عكس الأمر.

والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم، وإيثـار الحـظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولى به، وأنفع له في الدارين.

فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه، فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه، فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به.

كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنًا بالمرض، فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئًا، والعبد إنما يحارب ويصول ويقدم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها فما الظن بها؟.

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف، أعني النفس المطمئنـة، وإن كانت الأمارة تقوى وتتأسد، وكلما قويت هذه ضعفت تلك، فيبقى الحكم والتصرف للأمَّارة.

وربما ماتت نفسه المطمئنة موتًا لا يُرتجى معه حياة ينتفع بها، بل حياته، حياة يـدرك بها الألم فقط.

* والمقصود: أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابـة إليـه والجمعيـة عليـه، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمـع بين قلبه ولسانه، فينجس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر، ولا ينجس القلب واللسان على الذكر، بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لاهٍ ساهٍ غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينـه بطاعـة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه.

وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي، كمن له جند يدفعون عنه الأعـداء، فأهمـل جنـده وضيعهم وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة.

هذا، وثَمَّ أمرٌ أخوف من ذلك وأدهى منه وأَمَرُّ، وهو أن يخـون قلبـه ولسـانه عنـد الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، فربما تعذر النطق بالشـهادة، كمـا شـاهد كثيـرًا مـن المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم؛ قل "لا إله إلا الله" فقـال: آه آه، لا أسـتطيع أن أقولها.

وقيل لآخر: قل "لا إله إلا الله" فقال: شاه، رخ، غلبتك، ثم قضى.

وقيل لآخر: قل "لا إله إلا الله" فقال:

يا رُبَّ قائلةٍ يومًا وقد تعبت:

كيف الطريق إلى حمام منجاب؟

ثم قضى.

وقيل لآخر: قل "لا إله إلا الله" فجعل يهذي بالغناء، ويقول: تاتنا تنتنا، حتى قضى.

وقيل لآخر ذلك، فقال: ما ينفعني ما تقول، ولم أدَعْ معصية إلا ركبتها، ثم قضى ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عني، وما أعرف أني صليت صلاة؟ ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما تقول، وقضى.

وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أ ردت أن أقول ولساني يمسك عنها.

وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله، فلس لله، فلس لله، حتى قضى.

وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنون "لا إلــه إلا الله" وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشتى جيد، هذه كذا، حتى قضى.

وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبرًا؟ والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم.

فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكــن منــه الشــيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لســانه عــن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟ وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يسلم على ذلك؟ فهناك **{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِــتِ فِــي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}**[1].

فكيف يوفق بحسن الخاتمة مَن أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمــره فرطًا؟ فبعيد مَنْ قلبه بعيدٌ من الله تعالى غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته – أن يوفق للخاتمة بالحسنى.

---

[1] الآية: ٢٧ من سورة إبراهيم.

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان: {**أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ**}(٢).

كما قيل:

يا آمنا مَعْ قبيح الفعل منه أَهَلْ
أتاك توقيعُ أمنٍ أنت تملكه؟
جمعت شيئين: أمنًا، واتّباعَ هوًى
هذا، وإحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد
ساروا وذلك دربٌ لست تسلكه
فرَّطت في الزرع وقد البذر من سفهٍ
فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا، وأعجب شيءٍ فيك زهدك في
دار البقاء بعيشٍ سوف تتركه
مَنِ السفيه إذًا بالله؟ أنت، أم الْـ
ـمغبون في البيع غبنًا سوف تدركه

فصل: المعاصي تعمي القلب:

* **ومن عقوباتها:** أنها تعمي القلب، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد، وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد، فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه، وفي غيره بحسب ضعف بصيرته وقوته.

فإن الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه.

وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى لله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى: {**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ**}(١).

---

(٢) الآيتان: ٣٩ ، ٤٠ من سورة القلم.

(١) الآية: ٤٥ من سورة ص.

فالأيدي: القوى في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه.

وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى.

القسم الثاني: عكس هؤلاء، من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذه حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه.

القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة، ولكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحمًا، والدواء النافع سمّا.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول.

قال الله تعالى: {**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**}[١].

فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر -الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين- على أن من عداهم فهو من الخاسرين، فقال تعالى: {**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**}[٢].

ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضًا به، ويرشده إليه، ويحضه عليه.

وإذا كان من عدا هؤلاء خاسرًا، فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك الباطل حقًا والحق باطلاً، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا، فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدارة الآخرة، إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة، التي رضيت بالحياة الدنيا، واطمأنت لها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها، لكانت داعية إلى تركها والبعد منها، والله المستعان.

---

[١] الآية: ٢٤ من سورة السجدة.

[٢] سورة العصر كاملة.

وهذا كما أن الطاعة تنوّر القلب وتجلوه وتصقله، وتقوّيه وتثبته، حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلئ نورًا، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعًا، فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فيقال: أصابه إنسي، وبه نظرة من الإنس:

فيا نظرة من قلب حُرٍّ منوَّرٍ

يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوي هذا القلب وقلب مظلمة أرجاؤه، مختلفة أهواؤه، قد اتخذه الشيطان وطنه، وأعده مسكنه، إذا تصبح بطلقته حياة، وقال: فديت من قرين لا يفلح في دنياه ولا في أخراه؟

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها

فأنت قرين لي بكل مكان

فإن كنت في دار الشقاء، فإنني

وأنت جميعًا في شقًا وهوان

قال الله تعالى: **{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ}**[1].

فأخبر سبحانه أن من عَشَا عن ذكره، وهو كتابه الذي أنزله على رسوله، فأعرض عنه، وعمي عنه، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه، قيَّض الله له شيطانًا عقوبة له بإعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لا يفارقه في الإقامة ولا في الميسر؛ ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير.

رضيعا لبان ثدي أم، تقاسما

بأسحم داج عوضُ، لا نتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق الهدى، حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين كنت لي في الدنيا، أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني، وصددتني عن الحق وأغويتني حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.

---

(1) الآيات: ٣٦ – ٣٩ من سورة الزخرف.

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مَسْلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي

على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي، ولكن

أعزّي النفس عنه بالتأسّي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: {**وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**}[1].

فصل: المعاصي عدو لدود:

* **ومن عقوباتها:** أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه، وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، ولا ينام منه ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمرًا يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الجن، وغيرهم من شياطين الإنس، فقد نصب له الحبائل، وبغى له الغوائل، ومد حوله الأراك، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم، ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى عليَّ وعليكم من الخزي والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله؛ فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية، إذ فاتتنا شركة صالحيهم في الجنة، وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا، وأمرنا أن نأخذ له أهبته، ونعد له عدته.

ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وأنه قد سلط عليهم أمدَّهم بعساكر وجند يلقونه بها، وأمد عدوهم أيضًا بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر، التي هي بالإضافة إلى الآخرة كنفَس واحد من أنفاسها، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون، وأخبر أن ذلك وعدٌ مؤكد عليه في أشرف كتبه، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، وأخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفة التي مَن أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى

---

[1] الآية: ٣٩ من سورة الزخرف.

المشتري من هو؟ وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى مَن جرى على يديه هذا العقـد، فأي فوز أعظم من هذه؟ وأي تجارة أربح منه؟.

ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَـاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيـبٌ وَبَشِّـرِ الْمُؤْمِنِينَ}[٢].

ولم يسلط هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب أنواع المخلوقـات إليـه، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم إليه وسيلة، فعقـد سـبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته، هو القلب الذي هو محل معرفتـه ومحبتـه، وعبوديتـه والإخلاص له، والتوكل عليه والإنابة إليه، فولاه أمر هذه الحرب، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}[١].

يعقب بعضهم بعضًا، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر، يثبتونه ويأمرونه بالخير، ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة، وقد اسـترحت راحـة الأبد.

ثم أمدّه سبحانه بجندٍ آخر من وحيه وكلامه، فأرسل إليه رسوله ﷺ ، وأنزل إليه كتابه، فازداد قوة إلى قوته، ومددًا إلى مدده، وعدة إلى عدته، وأيده مع ذلك بالعقل وزيرًا له ومديرًا، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له، وبالإيمان مثبتًا له ومؤيدًا وناصرًا، وباليقين كاشفًا له عـن حقيقة الأمر، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه، فالعقـل يدبر أمر جيشه، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها، والإيمـان يثبته ويقويه ويصبره، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمدَّ الله سبحانه القائم بهذه الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة، فجعل العـين طليعتـه، والأذن صاحب خبره، واللسان ترجمانه، واليدين والرجلين أعوانه، وأقـام ملائكتـه وحملـة عرشه يستغفرون له، ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات، وتـولى سـبحانه الـدفع والدفاع عنه بنفسه، وقال: هؤلاء حزبي وحزب الله المفلحون، قال الله تعالى: {أُولَئِكَ حِـزْبُ

---

[٢] الآيات: ١٠ – ١٣ من سورة الصف.

[١] الآية: ١١ من سورة الرعد.

اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(٢)، وهؤلاء جندي {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}(٣) ، وعلم سبحانه عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(٤).

ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة، فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو، وهي مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خاليًا يدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلوا المكان الذي أُمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وهذه جماع الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر.

التقاء الجيشين:

* فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين، واصطدام العسكرين، وكيف تدال مرة، ويدال عليك مرة أخرى؟ أقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب في حصنه جالسًا على كرسي مملكته، أمره نافذ في أعوانه، وجنده قد حفوا به، يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته، فلم يمكنه الهجوم إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه، فسأل ع ن أخص الجند بهم وأقربهم منه منزلة، فقيل له: هي النفس، فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها، وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها، فعدوها به، ومنوها إياه، وانتشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها، فإذا اطمأنت إليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها، ثم جروها بها إليكم، فإذا خامرت على القلب، وصارت معكم عليه ملكتم ثغور العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل، فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل أو أسير، أو جريح مثخن بالجراحات، ولا تخلوا هذه الثغور، ولا تمكنوا سرية تدخل فيها

---

(٢) الآية: ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) الآية: ١٧٣ من سورة الصافات.

(٤) الآية: ٢٠٠ من سورة آل عمران.

إلى القلب فتخرجكم منها، وإن غُلِبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها، حتى لا تصل إلى القلب، وإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئًا.

ثغر العين:

* فإذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتبارًا بل اجعلوا نظره تفرجًا واستحسانًا وتلهيًا، فإن استرق نظره عبرة فأفسدوها عليه بنظرة الغفلة والاستحسان والشهوة، فإنه أقرب إليه وأعلق بنفسه، وأخف عليكم، ودونكم ثغر العين، فإن منه تناولن بغيتكم، فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر، فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة، ثم أسقيه بماء الأمنية، ثم لا أزال أَعِدهُ وأمنيه حتى أقوّي عزيمته، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة، فلا تهملوا أمر هذا الثغر، وأفسدوه بحسب استطاعتكم وهوّنوا عليه أمره وقولوا له: مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق، والتأمل لبديع صنيعه، وحسن هذه الصور التي إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه، وما خلق الله لك العينين سدى، وما خلق هذه الصورة ليحجبها عن النظر، وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل فقولوا له: هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه؛ فادعوه إلى القول بالاتحاد، فإن لم يقبل فالقول بالحلول العام أو الخاص، ولا تقنعوا منه بدون ذلك، فإنه يصير به من إخوانه النصارى، فمروه حينئذٍ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد في الدنيا، واصطادوا عليه وبه الجهال، فهذا من أكبر خلفائي وأكبر جندي، بل أنا من جنده وأعوانه.

فصل: ثغر الأذن:

* ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا أن لا تدخلوا منه إلا الباطل، فإنه خفيف على النفس، تستحليه وتستحسنه، تخيّروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب، وامزجوه بما تهوى النفس مزجًا.

وألقوا الكلمة، فإن رأيتم منه إصغاء فزُجوه أخواتها، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء، فإن غُلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به، إما بإدخال ضده عليه، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل له إليه، وهو حمل يثقل عليها لا تستقل به ونحو ذلك، وإما بإرخاصه على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس، وأعز عليهم، وأغرب عندهم، وزبونه القابلون له أكثر، وأما الحق فهو مهجور، وقائله معرض نفسه

للعداوة، والرابح بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك، فتدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه، وتخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه.

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول، وتتبع عثرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيق، وإلقاء الفتن بين الناس، ونحو ذلك، ويخرجون أتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ في قالب التجسيم والتشبيه والتكييف، ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزًا، ويسمون نزوله إلى السماء الدنيا، وقوله: "من يسألني فأعطيه" تحركًا وانتقالاً، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح، ويسمون ما يقوم به من أفعال حوادث وما يقوم به من صفاته أعراضًا، ثم يتوصلون إلى نفي ما وصف به نفسه بنفي هذه الأمور، ويوهمون الأغمار[1] وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ تستلزم هذه الأمور ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظه، ويردونه بعينه بفظ آخر، قال الله تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**}[1]، فسماه زخرفًا، وهو باطل، لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به.

* **والمقصود:** أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخل بغير اختياره أفسده عليه.

فصل: ثغر اللسان:

* ثم يقول: قوموا على ثغر اللسان، فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه: من ذكر الله تعالى واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، والتكلم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم:

أحدهما: التكلم بالباطل، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحق، فإن الساكت عن الحق أخٌ لكم أخرس كما أن الأول أخ ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم، أما سمعتم قول الناصح: "المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس"؟.

---

[1] الأغمار: الذين لم يجربوا الأمور من الناس.

[1] الآية: ١١٢ من سورة الأنعام.

فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوّفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم، وأكبهم منه على مناخرهم في النار، فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر؟.

وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، كونوا أعوانًا على الإنس بكل طريق، وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مرصد، أما سمعتم قسمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت: {**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**}[٢].

أوما تروني قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها، فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له بطريق غيره، حتى أصيب منه حاجتي أو بعضها؟ وقد حذرهم ذلك رسولهم ﷺ وقال لهم: "إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها، قعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه وأسلم، فقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فخالفه وهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: أتجاهد فتقتل فيقسم المال وتنكح الزوجة؟"[١].

فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة، وقولوا له في نفسه: أتخرج المال فتبقى مثل هذا السائل وتصير بمنزلته أنت وهو سواء؟ أوما سمعتم ما ألقيت على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه، فقال: هي أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم.

واقعدوا له بطريق الحج، فقولوا: طريق مخوفة مشقة، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال.

وهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتها، ثم اقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسّنوها في أعين بني آدم، وزيّنوها في قلوبهم، واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم، فنعم العون هنّ لكم.

* ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشي فيه.

---

[٢] الآيتان: ١٦ ، ١٧ من سورة الأعراف.

[١] صححه الألباني، ورواه أحمد والنسائي وابن حبان عن سبرة بن أبي فاكه، صحيح الجامع الصغير.

النفس الأمّارة:

* واعلموا أن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمّارة، فأعينوها واستعينوا بها، وأمدوها واستمدوا منها، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة، فاجتهدوا في كسرها وإبطال قواها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها؛ فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمّارة، وانطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه واعزلوه عن مملكته، وولّوا مكانه النفس الأمّارة، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه، ولا تجيئكم بما تكرهون البتة، مع أنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها، بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح فزيّنوها وجمّلوها، وأروها إياه في أحسن صورة عروس توجد، وقولوا له: ذق طعم هذا الوصال، والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب، ثم وازن بين لذة هذه المسألة ومرارة تلك المحاربة، فدع الحرب تضع أوزارها، فليست بيوم تنقضي، وإنما هو حرب متصل بالموت، وقواك تضعف عن حرب دائم، واستعينوا يا بني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما:

أحدهما: جند الغفلة، فأغفلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق، فليس لكم شيء أبلغ في تحصيل غرضكم من ذلك؛ فإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنتم منه ومن إغوائه.

والثاني: جند الشهوات؛ فزينوها في قلوبهم؛ وحسنوها في أعينهم، وصولوا عليهم بهذين العسكرين؛ فليس لكم من بني آدم أبلغ منهما، واستعينوا على الغفلة بالشهوات، وعلى الشهوات بالغفلة، واقرنوا بين الغافلين، ثم استعينوا بهما على الذاكر، ولا يغلب واحد خمسة؛ فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة، وشيطان الذاكر معهم، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم -من ذكر الله أو مذاكرة أمره ونهيه ودينه؛ ولم تقدروا على تفريقهم - فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين، فقربوهم منهم؛ وشوشوا عليهم بهم.

* وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها و ادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته فساعدوه عليها وكونوا أعوانًا له على تحصيلها، وإذا كان الله قد أمرهم أن يصبروا لكم ويصابروكم، ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أنت وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب، فلا تصطادون بني آدم في أعظم من هذين الموطنين.

واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور؛ فخذوا عليه طريق الشهوة، ودعوا طريق الغضب، ومنه من يكون سلطان الغضب عليه

أغلب، فلا تخلوا طريق الشهوة قلبه، ولا تعطلوا ثغرها، فإن لم يملك نفسه عند الغضب فإنه الحري أن لا يملك نفسه عند الشهوة، فزوجوا بين غضبه وشهوته وامزجوا أ؛دهما بالآخر وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب، وإلى الغضب من باب الشهوة.

واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين، وإنما أخرجتُ أبويهم من الجنة بالشهوة، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب؛ فبتّ أقطع أرحامهم، وسفكت دماءهم، وبه قتل أحد ابني آدم آخاه.

واعلموا أن الغضب جمرة في قلب ابن آدم؛ والشهوة تثور من قلبه، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير، فإياكم أن تمكّنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة، فإن ذلك يطفئ عنهم نار الغضب والشهوة، وقد أمرهم نبيهم بذلك فقال: "إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بذلك فليتوضأ"(١).

وقال لهم: "إنما تطفأ النار بالماء" وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة، فحولوا بينهم وبين ذلك، وأنسوهم إياه؛ واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها: الغفلة واتباع الهوى.

وأعظم أسلحتهم فيكم؛ وأمتع حصونهم، ذكر الله ومخالفة الهوى، فإذا رأيتم الرجل مخالفًا لهواه فاهربوا من ظله ولا تدنوا منه.

* **والمقصود:** أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلون بسلاحه، ويكون معهم على نفسه، وهذا غاية الجهل.

ما يبلغ الأعداء من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه

* ومن العجائب أن العبد يسعى بجهده في هوان نفسه، وهو يزعم أنها لها مكرم، يجتهد في حرمانها أعلى حظوظها وأشرفها وهو يزعم أنه يعليها ويرفعها ويكبرها.

وكان بعض السلف يقول في خطبته: ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنها لها مكبر، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحفظها! وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه؛ يبلغ منها بفعله ما لم يبلغ منه عدوه، والله المستعان.

---

(١) وجدته بنحو لفظه ومعناه معزوًا للحكيم عن ابن مسعود، انظر كنز العمال (جـ٣/ ٧٧١٧).

فصل: المعصية تنسي العبد نفسه:

* **ومن عقوباتها:** أنها تنسي العبد نفسه، وإذا نسي نفسه وأهملها وأفسدها وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه! وإذا نسي نفسه فأي شيء يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟.

قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان، قال تعالى: {**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**}[١].

فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال الله تعالى: {**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُم**}[٢].

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه. **والثانية:** أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم.

وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به بنسيه ذلك جميعه فلا يخطر بباله، ولا يجعله على كره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثر فيه.

وأيضًا فنسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر ببالها إزالتها.

وأيضًا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبها مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تئول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

فأي عقوبة أعظم من عقوبة مَن أهمل نفسه وضيعها، ونسي مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟.

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده، فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته.

---

[١] الآية: ١٩ من سورة الحشر.

[٢] الآية: ٦٧ من سورة الحشر.

فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها، فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، وكان سعيهم لتحصيلها، فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلاً بعاجل، ونسيئة بنقد، وغائبًا بناجز، وقالوا: هذا هو الحزم، ويقول أحدهم:

* خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به *

فكيف أبيع حاضرًا نقدًا مشاهدًا في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى غير هذه؟ وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان، وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببني الجنس، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله سبحانه في أهلها: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ}**(١).

وقال فيهم: **{فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}**(٢).

فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة، فتتقطع عليها النفوس حسرات، وأما الرابحون فإنهم باعوا فانيًا بباق، وخسيسًا بنفيس، وحقيرًا بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها؟ فكيف ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم، لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة، قال تعالى: **{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ}**(١).

وقال تعالى: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}**(٢).

وقال تعالى: **{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ}**(٣).

وقال تعالى: **{قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}**(٤).

---

(١) الآية: ٨٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية: ١٦ من سورة البقرة.

(١) الآية: ٤٥ من سورة يونس.

(٢) الآيات: ٤٢ – ٤٦ من سورة النازعات.

(٣) الآية: ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٤) الآيات: ١١٢ – ١١٤ من سورة المؤمنون.

وقال تعالى: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً* يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً}[٥].

فهذه حقيقة الدنيا عند موافاة يوم القيامة، لما علموا قلة لبثهم فيها، وأن لهم دارًا غير هذه الدار، وهي دار الحيوان ودار البقاء -رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء، فاتجروا تجارة الأكياس، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه، وكل أحد في هذه الدار الدنيا بائع مشتر متجر، و "كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها".

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٦].

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة، فتاجروا أيها المفلسون، ويا من لا يقدر على هذا الثمن هنا ثمن آخر، فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن.

{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[١].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٢].

والمقصود: أن الذنوب تنسي العبد حظه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة، والله المستعان.

فصل: المعاصي تزيل النعم:

* **ومن عقوباتها:** أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة، فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، وما استُجلِبَ مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سببًا وآفة، سببًا يجلبه، وآفة تبطله، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا

---

[٥] الآيات: ١٠٢ – ١٠٤ من سورة طه.

[٦] الآية: ١١١ من سورة التوبة.

[١] الآية: ١١٢ من سورة التوبة.

[٢] الآيتان: ١٠ ، ١١ من سورة الصف.

أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها.

ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره، وسماعًا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيهم، وهو مقيم على معصية الله، كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه، وواصل إلى الخلق لا إليه. فأي جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير.

فصل: المعصية تباعد بين العبد والملك:

* **ومن عقوباتها:** أنها تباعد عن العبد وليه، وأنفع الخلق له، وأنصحهم له، ومن سعادته في قربه منه، وهو الملك الموكل به وتدني منه عدوه، وأغش الخلق له وأعظمهم ضررًا له، وهو الشيطان، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

وفي بعض الآثار: "إذا كذب العبد تباعد الملَك ميلاً من نتن ريحه" فإذا كان هذا تباعد الملَك منه من كذبة واحدة، فماذا يكون مقدار بعده مه مما هو أكبر من ذلك، وأفحش منه؟

وقال بعض السلف: إذا ركب الذكر عجت الأرض إلى الله وهربت الملائكة إلى ربها، وشكت إليه عظيم ما رأت.

وقال بعض السلف: إذا أصبح العبد ابتدره الملَك والشيطان، فإذا ذكر الله وكبَّره وحمده وهلله طرد الشيطان وتولاه الملَك، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملَك عنه وتولاّه الشيطان.

ولا يزال الملَك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلَبة له، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه كما قال الله تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**}[1].

وإذا تولاه الملَك تولاّه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرّهم، فثبّته وعلّمه، وقوّى جنانه، وأيّده الله تعالى: {**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**}[2].

فيقول له الملَك عند الموت: "لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك"[3] ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة.

---

[1] الآيتان: ٣٠ ، ٣١ من سورة فصلت.

[2] الآية: ١٢ من سورة الأنفال.

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملَك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدّثه في سره، ويحارب عنه عدوه، ويدفع عنه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشّره به، ويحثّه على التصديق بالحق، كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعًا وموقوفًا: "إن للملَك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة، فلمة الملَك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق".

وإذا اشتد قرب الملَك من العبد تكلم على لسانه، وألقى على لسانه القول السديد، وإذا بعد منه وقرب الشيطان تكلم على لسانه، وألقى عليه قول الزور والفحش، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان.

وفي الحديث: "إن السكينة تنطق على لسان عمر" ﷺ.

وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول: ما ألقاه على لسانك إلا الملك، ويسمع ضدها فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان، فالملك يلقي بالقلب الحق، ويلقيه على اللسان، والشيطان يلقي الباطل في القلب، ويجريه على اللسان.

فمن عقوبة المعاصي: أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته، وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته، حتى إن الملك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه، كما اختصم بين يدي النبي ﷺ رجلان، فجعل أحدهما يسب الآخر، وهو ساكت، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه، فقام النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت، فقال: "كان الملك ينافح عنك، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس".

وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمَّن الملك على دعائه، وقال: "لك بمثله".

وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمّنت الملائكة على دعائه.

وإذا أذنب العبد المؤمن الموحّد المتّبع لسبيله وسنة رسول الله ﷺ ، استغفر له حملة العرش ومن حوله.

وإذا نام على وضوء بات في شعار ملك.

فملك المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه، ويعلّمه ويثبّته ويشجّعه، فلا يليق به أن يسيء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده، فإنه ضيفه وجاره.

وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرّهم؟ وإذا آذى العبد بأنواع المعاصي

---

(٣) هو جزء من حديث حساب القبر

والظلم والفواحش دعا عليه ربه، وقال: "لا جزاك الله خيرًا" كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان.

قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: "إن معكم من لا يفارقكم، فاستحيوا منهم وأكرموهم".

ولا ألأم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القدر، ولا يجلّه ولا يوقّره، وقد نبّه سبحانه على هذا المعنى بقوله: {**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**}[1].

أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم، وأجلّوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذّى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكاتبين؟ والله المستعان.

فصل: المعاصي مجلبة للهلاك:

* **ومن عقوباتها:** أنها تستجلب مواد هلاك العبد من دنياه وآخرته فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد، وكما أن البدن لا يكون صحيحًا إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الردية التي متى غلبت أفسدته، وحمية يمتنع بها مما يؤذيه ويخشى ضرره، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح تستفرغ بها المواد الفاسدة والأخلاط الردية منه، وحمية توجب له حفظ الصحة وتجنب ما يضادها، وهي عبارة عن استعمال ما يضاد الصحة.

والتقوى اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة، فإنها تستجلب المواد المؤذية، وتوجب التخطيط المضاد للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح.

فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض، وهو لا يستفرغها، ولا يحتمي لها، كيف تكون صحته وبقاؤه؟ ولقد أحسن القائل:

جسمك بالحمية حصنته
مخافة من ألم طاري
وكان أولى بك أن تخشى
من المعاصي خشية الباري

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهي، واستفرغ التخطيط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلبًا، ولا من الشر مهربًا والله المستعان.

---

[1] الآيات: ١٠ – ١٢ من سورة الانفطار.

فصل: العقوبات الشرعية على المعاصي:

فإن لم تردعك هذه العقوبات، ولم تجد لها تأثير في قلبك، فأحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم، كما قطع اليد في سرقة ثلاثة دراهم، وقطع اليد والرجل في قطع الطريق على معصوم المال والنفس، وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن، أو قطرة خمر يدخلها جوفه، وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الإحصان بمائة جلدة، وبنفي سنة عن وطنه وبلده إلى بلد الغربة، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات رحم منه، أو ترك الصلاة المفروضة، أو تكلم بكلمة كفر، وأمر بقتل من وطئ ذكرًا مثله، وقتل المفعول به، وأمر بقتل من أتى بهيمة، وقتل البهيمة معه، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة، وغير ذلك من العقوبات التي رتبها على الجرائم، وجعلها بحكمته على حسب الدواعي إلى تلك الجرائم، وحسب الوازع عنها.

فما كان الوازع عنه طبيعيًا وليس في الطباع داع إليه اكتفى فيه بالتحريم مع التعزير، ولم يرتب عليه حدًا، كأكل الرجيع، وشرب الدم، وأكل الميتة.

وما كان في الطباع داعٍ إليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته، وبقدر داعي الطبع إليه.

ولهذا لما كان داعي الطباع إلى الزنا من أقوى الدواعي كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها، وعقوبته السهلة أعلى أنواع الجلد مع زيادة التغريب.

ولما كانت جريمة اللواط فيها الأمران كان حده القتل بكل حال، ولما كان داعي السرقة قويًا ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد.

وتأمل حكمته في إفساد العضو الذي باشر العبد به الجناية، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه، ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به، إذ مفسدته تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها، فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجَلد.

فإن قيل: فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية؟.

قيل: لا، لوجوه.

أحدها: أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية، إذ فيه قطع النسل وتعريضه للهلاك.

الثاني: أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناة، بخلاف قطع اليد.

الثالث: أنه إذا قطع يده أبقى له يدًا أخرى تعوضه عنها، بخلاف الفرج.

الرابع: أن لذة الزنى عمت جميع البدن، فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن، وذلك أولى بتخصيصها ببضعة منه.

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل وأقومها بالمصلحة.

والمقصود: أن الذنوب إنما تترتب عليها العقوبات الشرعية أو القدرية أو يجمعها الله للعبد، وقد يرفعها عمن تاب وأحسن.

فصل: عقوبات الذنوب شرعية وقدرية:

* وعقوبات الذنوب نوعان: شرعية وقدرية، فإذا أُقيمت الشرعية رفعت العقوبة القدرية وأخففتها، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على العبد بين العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب، ولم يكفِ في زوال دائه، وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية، وربما كانت دونها، ولكنها تعم، والشرعية تخص، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعًا إلاّ مَن باشرَ الجناية أو تسبب إليها.

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة، فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أُعلِنَت ضرّت الخاصة والعامة، وإذا رأى الناس المنكر فتركوا إنكاره أوشك أن يعُمَّهُم الله بعقابه.

وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع لها، وجعلها الله سبحانه ثلاثة أنواع: القتل والقطع والجلد، وجعل القطع بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه، وهو الزنى واللواط، فإن هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد الأنساب، ونوع الإنسان.

قال الإمام أحمد: "لا أعلم بعد القتل ذنبًا أعظم من الزنا" واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال: "يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك"[١] فأنزل الله تصديقها: **{وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ}**[٢].

والنبي ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل: فإنه سأله عن أعظم الذنب، فأجابه بما تضمن ذكر أنواعها، وما هو أعظم كل نوع.

فأعظم أنواع الشرك: أن يجعل العبد لله ندّا.

---

[١] حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وأبو داود والنسائي.

[٢] الآية: ٦٨ من سورة الفرقان.

وأعظم أنواع القتل: أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه.

وأعظم أنواع الزنى: أن يزني بحليلة جاره، فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق.

فالزنى بالمرأة التي لها زوج أعظم إثمًا وعقوبة من التي لا زوج لها، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه وتعليق نسب عليه لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه، فهو أعظم إثمًا وجرمًا من الزنى بغير ذات البعل.

فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار، فإن كان زوجها جارًا له انضاف إلى ذلك سوء الجوار، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى وذلك أعظم البوائق.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه"[٣] ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأة الجار.

فإن كان الجار أخًا أو قريبًا من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم، فيتضاعف الإثم له، فإن كان الجار غائبًا في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعف له الإثم، حتى إن الزاني بامرأة الغازي في سبيل الله يوقف له يوم القيامة، ويُقال: خذ من حسناته ما شئت.

قال النبي ﷺ : "فما ظنكم؟" أي ما ظنكم أنه يترك من حسنات، قد حكم في أن يأخذ منها ما شاء؟ على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه، ولا الصديق لصديقه حقّا يجب عليه؟ فإن اتفق أن تكون المرأة رحمًا منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها، فإن اتفق أن يكون الزاني محصنًا كان الإثم أعظم، فإن كان شيخًا كان أعظم إثمًا، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام، أو بلد حرام، أو وقت معظم عند الله، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة، تضاعف الإثم، وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة، والله المستعان.

فصل: القطع لإفساد الأموال:

* وجعل سبحانه القطع بإزاء الأموال الذي لا يمن الاحتراز منه لأنه يأخذ الأموال في الاختفاء، وينقب الدور ويتسور من غير الأبواب فهو كالنسور والحية التي تدخل عليك من حيث لا تعلم، فلم ترتفع مفسدة سرقته إلى القتل، ولا تندفع بالجلد، فأحسن ما دفعت به مفسدته

---

[٣] صحيح أخرجه مسلم والحاكم وابن حبان.

حليلة الجار: من تحل له وهي زوجته، والبوائق: الذنوب والشرور.

إبانة العضو الذي يتسلط به على الجناية، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف.

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة، كما دارت الكفّارات على ثلاثة أنواع: العتق، وهو أعلاها، والإطعام، والصيام.

أقسام الذنوب:

* ثم إنه سبحانه جعل الذنوب ثلاثة أقسام:

قسمًا فيه الحد، فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد.

وقسمًا لم يترتب عليه حدًا، فشرع فيه الكفارة، كالوطء في نهار رمضان، والوطء في الإحرام، والظهار، وقتل الخطأ، والحنث في اليمين وغير ذلك.

وقسمًا لم يرتب عليه حدًا ولا كفارة، وهو نوعان:

أحدهما: ما كان الوازع عنه طبيعيًا، كأكل العذرة، وشرب البول والدم.

والثاني: ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد، كالنظر والقبلة واللمس، والمحادثة، وسرقة فلس، ونحو ذلك.

الكفارات في ثلاثة أنواع:

أحدها: ما كان مباح الأصل، ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم، كالوطء في الإحرام والصيام، وطرده: الوطء في الحيض والنفاس، بخلاف الوطء في الدبر، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح، فإنه لا يباح في وقت دون وقت، فهو بمنزلة التلوط، وشرب المسكر.

النوع الثاني: ما عقد لله من نذر أو بالله من يمين، أو حرمة الله، ثم أراد حله، فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث، كما ظنه الفقهاء، فإن الحنث قد يكون واجبًا وقد يكون مباحًا، وإنما الكفارة حل لما عقد.

النوع الثالث: ما تكون فيه جابرة لما فات، ككفارة قتل الخطأ، وإن لم يكن هناك إثم، وكفاة قتل الصيد خطأ، وإن لم يكن هناك إثم، وكفارة قتل الصيد خطأ، فإن ذلك من باب الجوابر، والنوع الأول من باب الزواجر، والنوع الوسط من باب التحلة لما منه العقد.

لا يجتمع الحد والتعزير:

* لا يجتمع الحد والتعزير في معصية، بل إن كان فيها حد اكتفى به وإلا اكتفى بالتعزير، ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية، بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها، وما

فيه كفارة فلا حد فيه، وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها؟ فيه وجهان، وهذا كالوطء في الإحرام والصيام، ووطء الحائض، وإذا أوجبنا فيه الكفارة، فقيل: يجب التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية، وقيل: لا تعزير في ذلك، اكتفاء بالكفارة: لأنها جابرة وماحية.

فصل: العقوبات القدرية:

* أما العقوبات القدرية فهي نوعان: نوع على القلوب والنفوس، ونوع على الأبدان والأموال.

العقوبات القدرية على القلوب:

*** والتي على القلوب نوعان:**

أحدهما: آلام الوجودية يضرب بها القلب.

والثاني: قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه.

وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها، وعقوبة القلب أشد العقوبتين وهي أصل عقوبة والأبدان.

وهذه العقوبة تقوى وتتزايد، حتى تسري من القلب إلى البدن، كما يسري ألم البدن إلى القلب، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقًا بها فظهرت عقوبة القلب حينئذ، وصارت علانية ظاهرة، وهي المسماة بعذاب القبر، ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار.

فصل: العقوبات القدرية على الأبدان:

* والتي على الأبدان أيضًا نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة.

وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما رتبت عليه في الشدة والخلقة، فليس في الدنيا والآخرة شر أصلاً إلى الذنوب وعقوباتها، فالشر اسمه لذلك كله، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال، وهما الأصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعيذ منهما في خطبته بقوله: "ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا".

وسيئات الأعمال: من شرور النفس، فعاد الشر كله إلى شر النفس، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته.

وقد اختلف في معنى قوله: "ومن سيئات أعمالنا" هل معناه السيء من أعمالنا، فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه؟ أو تكون "من" بيانية، وقيل: معناه من عقوباتها التي تسوء، فيكون التقدير: ومن عقوبات أعمالنا التي تسوءنا، ويرجح هذا القول: أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشرور، فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة، وهي تستلزم العقوبات السيئة، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال، واكتفى بذكرها منه، إذ هو أصله، ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه، فهو السيئات التي تسوء العبد من عمله، من العقوبات والآلام، فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفرعه وغايته ومقتضاه.

ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم: **{وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ}**[1].

فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها؛ فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيئ وقاهم جزاء السيئ، وإن كان قوله: **{وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَه}** أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ.

* **فإن قيل:** فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة، فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها: الأعمال السيئة، يكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ.

ولا يرد على هذا قوله: **{يَوْمَئِذٍ}** فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم، وهي سيئات في أنفسها.

قيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة، فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان، والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله تعالى بسعة علمه، وسعة رحمته، فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم، وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها،وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنّة في بطون أمهاتهم وعلمه السابق بأنهم لا بد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة؛ وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن

---

[1] الآية: ٩ من سورة غافر.

أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا السبيل التي يحبها ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم، وفروعهم، وأزواجهم – جنات عدن التي وعدهم بها، وهو سبحانه، وإن كان لا يخلف الميعاد، فإنه وعدهم بها بأسباب، ومن جملتها: دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التي منها وفقهم لأعمالهم، وأقام ملائكته يدعون لهم لها.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: {**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**}[1] أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما شاء، ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب؛ فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر.

* والمقصود: أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية، وعقوبات قدرية؛ وهي إما في القلب، وإما في البدن، وإما فيهما، وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت؛ وعقوبات يوم حشر الأجساد؛ فالذنب لا يخلوا من عقوبة ألبتة؛ ولكن لجهل العبد لا يشعر بما فيه من العقوبة؛ لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحس بالألم، فترتّب العقوبات على الذنوب كترتّب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، والغرق على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الجالبة لها، وقد تقارن المضرة الذنب وقد تتأخر عنه، إما يسيرًا وإما مدة، كما يتأخر ا لمرض من سببه أو يقارنه، وكثيرًا ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام والذنب فلا يرى أثره عقبه، ولا يدري أنه يعمل عمله على التدريج شيئًا فشيئًا، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القذة بالقذة فإن تدارك العبد بالأدوية والاستفراغ والحمية، وإلا فهو صائر إلى الهلاك، هذا إذا كان ذنبًا واحدًا لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب وكل ساعة؟ والله المستعان.

فصل: بعض عقوبات المعاصي:

* فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب وجوز وصول بعضها إليك، واجعل ذلك داعيًا للنفس إلى هجرانها، وأنا أسوق لك منها طرفًا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

---

[1] الآية: ٩ من سورة غافر.

الختم على القلب:

* **فمنها:** الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والإقفال على القلوب، وجعل الأكنّة عليها، والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضًا على مرضها، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقى منكوسة، كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: "القلوب أربعة: فقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما".

* **ومنها:** التثبيط عن الطاعة، والإقعاد عنها.

* **ومنها:** جعل القلب أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات الحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية.

{**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**}[1].

وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر، كيف وقد قال الله تعالى: {**لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ**}[2]، وقال: {**عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى**}[3].

وإنما المراد العمى التام في الحقيقة عمى القلب، حتى إن عمى البصر بالنسبة إليه كلا عمى، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته، كما قال النبي ﷺ : "ليس الشديد بالصرعة ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب" وقوله ﷺ : "ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يُفطن له فيُتصدَّق عليه" ونظائره كثيرة.

* **والمقصود:** أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم.

---

(١) الآية: ٤٦ من سورة الحج.

(٢) الآية: ٦١ من سورة النور.

(٣) الآيتان: ١ ، ٢ من سورة عبس.

خسف القلب:

* **ومنها:** الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلى أسفل السافلين، وصاحبه لا يشعر، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالاً حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقرّبه إليه لا يزال جوالاً حول العرش.

* **ومنها:** البعد عن البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق.

قال بعض السلف: "إن هذه القلوب جوالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُشِّ".

مسخ القلب:

* **ومنها:** مسخ القلب، فيمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يمسخ على خلق قلب كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك، وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ}**[٤].

قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوس في ثيابه كما يتطوس الطاوس في ريشه، ومنهم من يكون بليدًا كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها، وقد شبه الله تعالى أهل الجحيم والغي بالحمر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطنًا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهورًا خفيًا، يراه المتفرسون، وتظهر الأعمال ظهورًا يراه كل أحد، ولا يزال يقوى حتى تستشنع الصورة، فتنقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التام، فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر؟ وقلب ممسوخ، وقلب مخوف به؟ وكم من مفتون بثناء الناس عليه؟ ومغرور بستر الله عليه؟ ومستدرج بنعم الله عليه؟ وكل هذه عقوبات وإهانات، ويظن الجاهل أنها كرامة.

---

[٤] الآية: ٣٨ من سورة الأنعام.

* **ومنها:** مكر الله بالماكر، ومخادعته للمخادع، واستهزاؤه بالمستهزئ، وإزاغته للقلب الزائع عن الحق.

نكس القلب:

* **ومنها:** نكس القلب حتى يرى الباطل حقًا، والحق باطلاً، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا، ويفسد ويرى أنه يصلح، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها، ويشتري الضلالة بالهدى، وهو يرى أنه على الهدى، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه؟ وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلب.

حجب القلب عن الرب:

* **ومنها:** حجاب القلب عن الرب في الدنيا، والحجاب الأكبر يوم القيامة، كما قال الله تعالى: {**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**}[1].

فمنعهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم، فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها، وما يفسدها ويشقيها، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم، فتصل القلوب إليه فتفوز بقربه وكرامته، وتقر به عينًا وتطيب به نفسًا، بل كانت الذنوب حجابًا بينهم وبين ربهم وخالقهم.

المعيشة الضنك:

* **ومنها:** المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة، قال تعالى: {**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**}[1].

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره؛ فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر، فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا

---

[1] الآيتان: ١٤ ، ١٥ من سورة المطففين.

[1] الآية: ١٢٤ من سورة طه.

إذا كان صاحبه في عسكر الأموات، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقر العين ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرّت عينه بالله قرّت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا، كما قال تعالى: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**[٢].

فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا الحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين.

ونظير هذا قوله تعالى: **{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}**[٣].

ونظيرها قوله تعالى: **{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ}**[٤].

ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد كان يقول بعض مَن ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لَجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: "إذا

---

[٢] الآية: ٩٧ من سورة النحل.

[٣] الآية: ٣٠ من سورة النحل.

[٤] الآية: ٣ من سورة هود.

مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر"[١] وقال: "مـــا بـــين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة"[٢].

نعيم الأبرار وجحيم الفجار:

* ولا تظن أن قوله تعالى: {**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**}[٣] مخـــتص بيوم الميعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب، وسلامة الصدر ومعرفة الرب تبـــارك وتعـــالى ومحبته، والعمل على موافقته؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ أثنى الله سبحانه وتعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال: {**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**}[٤]، وقال حاكيًا عنه أنه قال: {**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَـــنْ أَتَـــى اللَّـــهَ بِقَلْـــبٍ سَلِيمٍ**}[٥].

والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة؛ فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد.

سلامة القلب:

* ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك ينـــاقض التوحيـــد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهـــوًى ينـــاقض التجريـــد والإخلاص.

وهذه خمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيـــرة، تتضـــمن أفـــرادًا لا تنحصر.

---

[١] ضعفه الألباني في الجامع الصغير من حديث الترمذي وأحمد والبيهقي عن أنس.

[٢] صحيح أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن عبد الله بن زيد المازني والترمذي عن علي وأبي هريرة.

[٣] الآيتان: ١٣ ، ١٤ من سورة الانفطار.

[٤] الآيتان: ٨٣ ، ٨٤ من سورة الصافات.

[٥] الآيتان: ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء.

الصراط المستقيم:

ولذلك اشتدت حاجة العبد، بل ضرورته، إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها.

فإن الصراط المستقيم يتضمن علومًا وإرادات وأعمالاً وتروكًا ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه، وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده، كسلاً وتهاونًا، أو لقيام مانع وغير ذلك، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم فيه بشروط الإخلاص وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم به بكمال المتابعة وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه، وهذا كله واقع سار في الخلق، فمستقل ومستكثر.

وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك، بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك كله، وهذا هو الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم، فأعادهم إلى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم، والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه وقدره؛ ونهيه وأمره، فيهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته، وجعله الهداية حيث تصلح، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمه لعدم صلاحية المحل، وذلك موجب صراطه المستقيم الذي هو عليه، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطًا مستقيمًا يوصلهم إليه، فهو على صراط مستقيم.

* ونصب لعباده من أمره صراطًا مستقيمًا دعاهم جميعًا إليه حجة منه وعدلاً، وهدى من شاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلاً، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه، فإذا كان يوم لقائه نصب لخلقه صراطًا مستقيمًا يوصلهم إلى جنته، ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا، وأقام عليه من أقامه عليه في الدنيا نورًا ظاهرًا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الحشر، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه، كما حفظ عليهم الإيمان به حتى لقوه، وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه، كما أطفأ من قلوبهم في الدنيا.

وأقام أعمال العصاة بجنبتي الصراط كلاليب وحسكًا تخطفهم كما خطفتهم في الدنيا عن الاستقامة عليه؛ وجعل قوة سيرهم وسرعتهم عليه على قدر قوة سيرهم وسرعتهم في الدنيا، ونصب للمؤمنين حوضًا يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا، وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا.

* فانظر إلى الآخرة كأنها رأي عين، وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين، تعلم حينئذ علمًا يقينًا لا شك فيه: أن الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وأنموذجها، وأن منازل الناس فيها

من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح، وضدهما، وبالله التوفيق.

فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة.

فصل: أصل الذنوب:

* ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها.

ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلاً وجيزًا جامعًا، فنقول:

أصلها نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوي الجن والإنس.

وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح، وباطن في القلوب.

وباعتبار متعلقه إلى حق الله؛ وحق خلقه.

وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه، لكن سمي حقًا للخلق لأنه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم.

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام ملكية، وشيطانية، وسبعية، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك.

الذنوب الملكية:

* فالذنوب الملكية أن يتعاطى ما لا يصح له من صفات الربوبية، كالعظمة والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلو، واستعباد الخلق، ونحو ذلك.

ودخل في هذا شرك بالله تعالى، وهو نوعان: شرك في أسمائه وصفاتها وجعل آلهة أخرى معه، وشرك به في معاملته، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار، وإن أحبط العمل الذي أشك فيه مع الله غيره.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذنوب، فقد نازع الله سبحانه في ربوبيته وملكه، وجعله له ندًا، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

فصل: الذنوب الشيطانية:

* وأما الشيطانية: فالتشبه بالشيطان في الحسد، والبغي والغش، والغل والخداع والمكر، والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعته وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال.

وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

فصل: الذنوب السبعية:

* وأما السبعية: فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني والجرأة على الظلم والعدوان.

الذنوب البهيمية:

* وأما الذنوب البهيمية: فمثل الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنى، والسرقة، وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشح، والجبن، والهلع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يجرهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية، والشرك في الوحدانية.

ومن تأمل هذا حق التأمل، تبين أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته.

فصل: الذنوب: كبائر وصغائر:

* وقد دل القرآن والسنة وإجمال الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة، على أن الذنوب كبائر وصغائر.

قال الله تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً}[١].

وقال تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ}[٢].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر".

---

[١] الآية: ٣١ من سورة النساء.

[٢] الآية: ٣٢ من سورة النجم.

وهذه الأعمال المكفّرة لها ثلاث درجات:

إحداها: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها، بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر، ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر.

الثالثة: أن تقوى على تكفير الصغائر، وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر.

فتأمل هذا؛ فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة.

وفي الصحيحين عنه ﷺ : "اجتنبوا السبع الموبقات: قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات".

وفي الصحيحين عنه ﷺ : أنه سئل: أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: "أن تدعو لله ندّا وهو خلقك، قيل: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قيل: ثم أي؟ قال أن تزاني بحليلة جارك" فأنزل الله تعالى تصديقها:

{وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ}(٣).

عدد الكبائر:

واختلف الناس في الكبائر: هل لها عدد يحصرها؟ على قولين.

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها، فقال عبد الله بن مسعود: هي أربع، وقال عبد الله بن عمر: هي سبع، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هي تسعة، وقال غيره: هي إحدى عشر، وقال آخر: هي سبعون.

وقال أبو طالب المكي: جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب، وهي الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، وأربعة في اللسان: وهي شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر، وثلاث في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، واثنان في الفرج وهما الزنى، واللواط، واثنان في اليدين وهما: القتل، والسرقة، وواحد في الرجلين، وهو الفرار من الزحف، وواحد يتعلق بجميع الجسد، وهو: عقوق الوالدين.

---

(٣) الآية: ٦٨ من سورة الفرقان.

* والذين لم يحصروها بعدد، منهم من قال: كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة.

* وقالت طائفة: ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيء من ذلك فهو صغيرة.

* وقيل: كل ما ترتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة.

* وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

* وقيل: كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة.

* وقيل: كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}[1].

الذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر:

* والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها -بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره- كبائر، فالنظر إلى من عصى أمره، وانتهك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية في هذه المفسدة.

قالوا: ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته، ولا فرق ي ذلك بين ذنب وذنب.

قالوا: ويدل عليه أن مفسدة الذنوب إنما هي تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى، ولهذا لو شرب رجل خمرًا أو وطئ فرجًا حرامًا، وهو لا يعتقد تحريمه، لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان آتيًا بإحدى المفسدتين، وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول، فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب.

قالوا: ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمته، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب.

---

[1] الآية: ٣١ من سورة النساء.

قالوا: فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه، ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمته، وانتهاك حرمته بالمعصية، وهذا لا يفترق فيه الحال بين معصية ومعصية، فإن ملكًا مطاعًا عظيمًا لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب في مهمة له إلى بلد بعيد، وأمر آخر أن يذهب في شغل له إلى جانب الدار، فعصياه وخالفا أمره، لكانا في مقته والسقوط من عينه سواء.

قالوا: ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة ومن ترك الجمعة وهو جار المسجد، أقبح عند الله من معصية من ترك من المكان البعيد، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا، ولو كان مع رجل مائتا درهم ومنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف ألف ألف فمنع زكاتها لاستويا في منع ما وجب على كل واحد منهما، ولا يبعد استواؤهما في العقوبة، إذا كان كل منهما مصرًا على منع زكاة ماله، قليلاً كان المال أو كثيرًا.

فصل: الحق في المسألة:

* وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يُقال:

إن الله عز وجل أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السموات والأرض ليُعرف ويُعبد ويُوحد ويكون الدين كله لله، والطاعة كلها له، والدعوة له، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}[1].

وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ}[2].

وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً}[3].

وقال تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[4].

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر: أن يُعرف بأسمائه وصفاته، ويُعبد وحده لا يشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، كما قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}[1].

---

[1] الآية: ٥٦ من سورة الذاريات.

[2] الآية: ٨٥ من سورة الحجر.

[3] الآية: ١٢ من سورة الطلاق.

[4] الآية: ٩٧ من سورة المائدة.

[1] الآية: ٢٥ من سورة الحديد.

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأي العدل وقوامه، وإن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل: فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات، وأفرض الطاعات.

فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي.

فلما كان الشرك بالله منافيًا بالذات لهذا المقصود كان من أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرم الله الجنة على كل مشرك، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيدًا لهم، لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً، أو يقبل فيه شفاعة أو يستحب له في الآخرة دعوة، أو يقيل له فيها عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه ندّا وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه.

فصل: شرك الوساطة:

* **ووقعت مسألة وهي:** أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية، وإنما قصد تعظيمه، وقال: وإنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه وتدلني وتدخلني عليه، فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء، فلِمَ كان هذا القدر موجبًا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى، ومخلدًا في النار، وموجبًا لسفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم وأموالهم؟.

وترتب على هذا سؤال آخر، وهو أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع، أم ذلك قبيح في الفطر والعقول يمتنع أن تأتي به شريعة؟ بل جاءت الشرائع بتقرير ما في الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح؟ وما السر في كونه لا يغفره من بين سائر الذنوب؟ كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}[1].

فتأمل هذا السؤال، واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه، فإنه به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين، والعالمين بالله والجاهلين به، وأهل الجنة وأهل النار.

الجزء الثاني ⇦

[1] الآية: ٤٨ من سورة النساء.